أبحاث ندوة عمارة المساجد، م ١ أ، ص ص ١٧٩-٢٢٨، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود (١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م)

الثوابت والمتغيرات في عمارة الحرمين الشريفين :
دروس مستفادة من مشاريع إعمارهما وتوسعهما على مر العصور

محمد بن عبد الله بن صالح

قسم العمارة وعلوم البناء، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود

الرياض، المملكة العربية السعودية

ملخص البحث: يقصد بالثوابت جميع الاعتبارات الشرعية التي يجب على المعماري والمخطط الالتزام بها وعدم الحياد عنها أثناء عملية التخطيط أو التصميم أو الترميم لأي مشروع يخص الحرمين الشريفين أما المتغيرات فهي جميع ما لا يتعارض مع الثوابت التي حددها الشرع. عملية تحديد الثوابت والمتغيرات قد تساعد على فهم موضوع الاستمرارية في التراث الذي ينادي به من مده طويلة منظري العمارة والتخطيط. ففهم الثوابت النابعة من التشريع الإسلامي والمتغيرات التي تمليها علينا الخصائص الطبيعية للمكان (جغرافية أو مناخية) ومنتجات الصناعة من مواد بناء أساسية ونظم إنشاء ومعدات هدفه راحة الحاج والمعتمر والزائر. فالتقنية على مرور الزمن تساعد المستخدم للفراغ المعماري على التكييف مع العوامل الطبيعية. والتفاعل الناجح بين الثوابت مع المتغيرات ربما يفسر لنا شكل وتطور الطراز المعماري المنتمي لكل فترة من فترات العمارة للحرمين الشريفين مما يقودنا إلى التأني في إطلاق الأحكام على الحديث عن الطرز المعمارية والتقنيات المستخدمة والغير مألوفة في الوقت الذي نمر به والذي يطلق عليها بالمعاصرة.

المقدمة

يقصد بعمارة الحرمين الشريفين معنيين، الأول إعمارهما المعنوي بالعبادة ،والآخر إعمارهما المادي بالبناء والتوسعة والإصلاح ، وقد واكب عمارة وتوسعات الحرمين الشريفين منذ نشوءها استخدام تقنيات بناء وتصميم عالية الجودة وذلك لما لهما من مكانة في قدر ولاة أمر المسلمين ولا يمكن القول أنها خاصة بالحرمين دون ما سواهما لكن تصميمها بدأ في الحرمين الشريفين. ومن ثم يمكن تطبيقها في أماكن عدة لذا يجب أن لا يفهم خطأ ضمن المجتمع الإسلامي، أن الجديد أو الحديث ليس إسلامياً فما دامت الثوابت مطبقة فهو إسلامي صرف. وهذا لا يعني أن الحديث أفضل أو احسن من القديم ولكنها صفات تطلق على الأشياء فالجديد هو ما لم يكن لنا به عهد سابق وهو نقيض البالي، والحديث نقيض القديم فكل جديد حديث وليس كل حديث بجديد، فكل المباني كانت حديثة ثم أصبحت قديمة وأيضا كلها كانت جديده ثم أصبحت باليه وهذا لا يفيد انه جيد أو غير جيد، ملائم أو غير ملائم، قبيح أو جميل، ففي تعاملنا مع تسجيل تطبيقات الثوابت في مشاريع الحرمين الشريفين

المعمارية يجب أن ننظر إلى كل مشروع عمارة أو توسعة على حده ونعرف الثوابت التي من اجلها وصل المشروع إلى تلبية حاجة الحجاج والمعتمرين والزوار وهل حقق الغرض والاحتياجات أم لا وعلى هذا يتم التقويم.

فالثوابت هو ما أثبته الله ورسوله وأجمع عليه المسلمين كالفعل والعمل والالتزام مثل الالتزام باتجاه المساجد للكعبة وعدم جرح حرمة الجوار للمؤذن أثناء تأديته الأذان وإعطاء الطريق حقه وعدم التصوير للمخلوقات ذات الروح والزخرفة، بما والمتغيرات مثل أشكال الفراغ ومواد البناء وتقنيات الإنشاء والإنارة والصوت. فإذا تحققت الثوابت في العمارة أصبحت إسلامية فالتجديد دوماً الناتج من تطبيق المتغيرات مما لا ضرر فيه. كما أن تحديث المتغيرات القديمة ليس به من بأس مادام يؤدى غرض ما ومنفعة لفرد أو مجموعة. أما تحجير العمارة في بلاد المسلمين بأنها أنماط وأشكال ثابتة فهذا عين الخطأ، فالإسلام دين عالمي مستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فلا يمكن توقيف الأشكال في فترة من الفترات أو تشديد أمر تشكيل المباني أو الفراغ بالطرز التي اصطلحوا عليها خطأ بأنها إسلامية وفي نفس الوقت لا يوجد ضرر من استعمالها من قبل المحبين للطرز التي أفرزتها فترة من الفترات.

وقد يكون من جراء ذلك المفهوم الخاطئ ربط العمارة الإسلامية بالأشكال الهندسية والزخرفية بدلاً من اعتبار أن العمارة الإسلامية هي تطبيق الثوابت التي ينص عليها الإسلام واستخدام المتغيرات لجلب أفكار وإبداعات معمارية. يمكن من جراء ذلك تكوين مفهومٍ جديدٍ للعمارة وصبغها بالصبغة الإسلامية، فإن التوضيح بالنسبة للثوابت مهم للمهتمين، فربما استخدمنا مواد موجودة لدينا أو لدى غيرنا مثل الحجر والرخام والحديد والزجاج والأسمنت كمتغيرات فالمواد تنتقل من مكان لآخر والتقنية تتطور وطرق البناء كذلك والمعالجات تتحسن إلى الأفضل ونحن نتطلع إلى الأفضل، فمن هذا المنطلق يمكن إعطاء مبنى المسجد صبغة إسلامية عندما يخصص أماكن خاصة لصلاة النساء فالإسلام لم يكن في يوم من الأيام حجر عثره في سبيل تقدم أي صناعة سواء كانت صناعة البناء أو التنفيذ أو إدارة المرافق.

يجب أن لا تضيق ممارسة المهنة أو الأشكال التي تتشكل بها المباني بزخارف ورموز أو مفردات محدده يكون منشؤها أما إنشائي كالعقود أو تذكيري كالخطوط والكتابات، أو تفخيمي كالزخرفة والضخامة. نحن لا ندري ماذا سيحصل لصناعة البناء في المستقبل فالإسلام صالح لكل الأوقات والأزمان.[11] لذا ينبغي للمعماريين والمخططين أن يتفهموا احتياج المجتمع أولا ومن ثم إيجاد الحلول الملائمة ومعالجة المشاكل الناتجة سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو مناخية أو تضاريسية أو تقنية، ويعملوا على ربط التراث بتقنية القرن الذي يبنى فيه، مع الحرص على المحافظة على الثوابت.

ولكن الأهم من ذلك هو معرفة تزاوج الثوابت مع صناعة البناء والتقنية وأن نعرف كيفية التعامل مع الجديد ضمن إطار الشريعة الإسلامية حيث لا يجب خلط الأمور وجعل أشياء لا علاقة لها بالإسلام جزءاً من الشرع وهى ليست منه في شيء، وهنا يأتي دور المؤسسات التعليمية في تثقيف المعماريين واستعمال المصطلحات والألفاظ الصحيحة في النقد والشرح.

كان أسلوب التخطيط وتقنية البناء والزخرفة وتقنيات التنفيذ في كل مشروع عمارة أو توسعة للحرمين الشريفين متميزاً عن غيره، وهو الذي تحاول هذه الورقة أن تقوم بدراسته وإظهار المعرفة وذلك لتسهيل مهمة ربط الحاضر بالماضي والعمل على الاستمرارية للتراث وتجنب الفصل القائم بين الماضي والحاضر وذلك للمحافظة على التراث والاستمرارية فيه.[٢]

وقد اهتم خلفاء وسلاطين وملوك المسلمين على مر العصور بعمارة وتوسعة الحرمين الشريفين عند اتخاذ أي قرار، وظلت أعمال الترميم والإصلاح والتجديد وإدخال الجديد من التقنيات لهما على قدم وساق بشكل فاق أعمال أي مبنى آخر على مر التاريخ.

لم يكن المسجد الحرام أو المسجد النبوي في عهد الرسول ﷺ أو في صدر الإسلام كما نراه الآن وإنما هو تطور مادي عبر القرون نتج عن تفاعل موفق بين الثوابت والمتغيرات أقره ولاة الأمر والعلماء من المسلمين كما أن المظهر المادي للمسجد نتج عن تمازج الثقافات وتطور تقنيات البناء وخاماتها عبر العالم الإسلامي ونتيجة لهذه التطورات المتتالية أصبحت هناك عمارة متجددة للمسجدين.

توسعة الحرمين الشريفين ليست بناءاً هندسياً أو عمارة فنية فحسب، وإن كانت كذلك كما يتراءى للعين، لكنها امتداد للأديان السماوية منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها إلى قيام الساعة مروراً برسالة الإسلام التي بعث بها خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ .

الحرمان الشريفان أماكن لعبادة الله سبحانه اختارها الله في أكثر الأماكن قدسية فهي من أكثر الأماكن ازدحاما وأكثرها تجمعا للبشر من مختلف الألوان والأجناس واللغات والمستويات الحضارية والثقافية والمادية. والمطلوب ممن يقوم بأي عمل حيالها أن يراعي الجوانب التي تجعلها تؤدي دورها بحيث يصل من يؤمها إلى قمة الخشوع والراحة وهو في هذا المكان الآمن.

نضرب لذلك الأمثلة الناتجة عن زيادة عدد الحجاج والمعتمرين والتي فرضت قرارات حاسمة وحلول مبتكرة خدمة لهم مثل:

١ - عندما أصدر والي مكة خالد بن عبد الله القسري أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قراره الصائب باستدارة صفوف الصلاة بدلا من كونها خلف الأمام فقط، ضاعف آلاف المرات طاقة الحرم الاستيعابية من المصلين ووسع على أمة المسلمين.

٢ - التعامل بحكمة مع الثوابت الملموسة الموجودة مثل ما أمر به الملك سعود بن عبد العزيز من طمر لفوهة بئر زمزم وجعلها من المطاف وعمل درج للبئر يمكن الراغب من الحجاج أو المعتمرين النزول إليه وكذلك إزالة المقصورة التي كانت على مقام إبراهيم والاكتفاء بأقل تحديد للمقام وذلك تخفيفا على الطائفين وتيسيرا لحركة طوافهم.

٣ – عندما قرر الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله رفع طوابق عليا فوق الأروقة أو خفض طوابق تحت الأروقة لاستيعاب العابدين والقائمين والركع السجود والحجاج والمعتمرين. وهذه إضافات وابتكارات معمارية حققت الوظيفة والجمال والتناسق وراحة الحجاج والعمار.

٤ – عندما أمر الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله إدخال طريق المسعى بين الصفا و المروة في حدود المسجد المبارك وكانت الأسواق تكاد تفسد شعيرة السعي، فحفظت هذه الخطوة للشعيرة وقارها واستقلالها وزادت تيسيرا بإنشاء مسعى بالطوابق العليا.

يكمن الإبداع في عمارة وتوسعة الحرمين الشريفين في الاستخدام الأمثل للفراغ وللتقنيات الهندسية المختلفة (إنشاءً وإضاءة وصوتا وتهوية وتبريداً). والتخطيط الناجح لحركة المركبات (دواب أو آليات) والمشاة على اختلاف أنواعهم.

كل ذلك يحدث في توافق وانسجام تام يوفر الخشوع والراحة والطمأنينة للمسلمين الذين يتجمعون في هذا المكان في وقت واحد في الحج والعمرة وفي رمضان. وإذا كانت الأعمال تخلد لأصحابها ذكرا في الدنيا، فإن العمل في هذين الحرمين شرف وعبادة لمن وضع حجرا أو خط خطاً أو أنفق دينارا، فكيف بمن اتخذ قراراً في أن يُبْدَأَ في العمل لِعمارة كل من الحرمين المسجد الحرام بيت الله وقبلة المسلمين والمسجد النبوي مسجد الرسول ﷺ إنه الشرف في الدنيا والثواب في الآخرة إن شاء الله.

الأهداف

الهدف من دراسة التوسعات في الحرمين على مر العصور هو الخروج بمجموعة من الثوابت والمتغيرات الخاصة بالتصميم والتخطيط للحرمين الشريفين من خلال دراسة عمارتهما وتوسعاتهما خلال الأربعة عشر قرنا الماضية للاسترشاد بما من قبل أي مصمم أو مخطط لأي مشروع لاحق.

الهدف الأساسي من العمارة والتوسعات للحرمين الشريفين هو الإنسان المسلم (الحاج، المعتمر، الزائر، الراكع، الساجد) على اختلاف لغته ولونه وعمره وحالته الصحية، فالإسلام بشهادة أن لا إله إلا الله يجمع كل هذا الشتات في نقطة واحدة حيث تحاول كل عمارة أو توسعة أن تحقق التكيف الفعال لحاجاتهم.

المنهج

يتلخص المنهج في دراسة أعمال عمارة وتوسعات الحرمين الشريفين على مر العصور لاستخلاص الثوابت النابعة من مبادئ أساسية حددها الإسلام والتي حافظ عليها من تولى أعمال عمارتهما وتوسعتهما على مر العصور. تشمل الثوابت: ثوابت حسية يراها المشاهد ،وثوابت معنوية يمارسها المستخدم في سلوكياته في داخل الحرمين على وجه الخصوص ، وفي بيوت الله على وجه العموم.

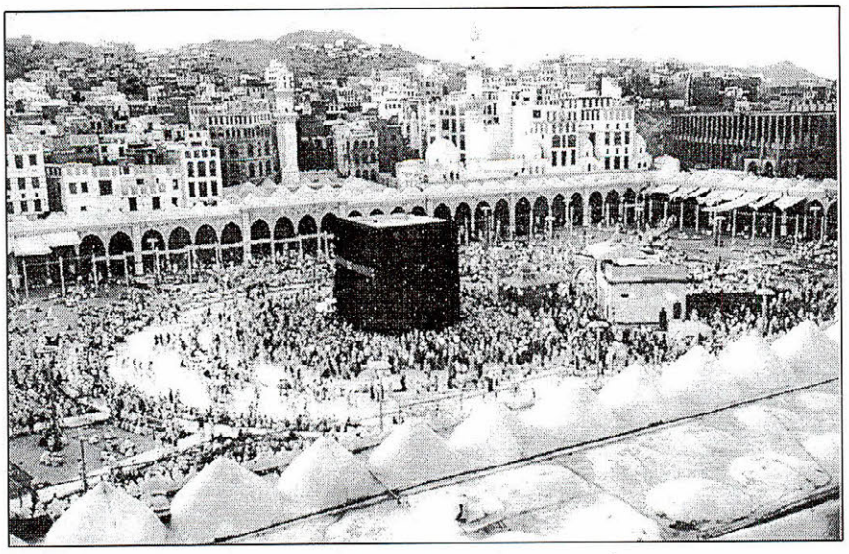
خصائص الحرمين الشريفين

لم يبق أثر معماري ملموس من المسجد الحرام أو مسجد الرسول ﷺ إلا الثوابت بينما المتغيرات أصبحت تاريخاً لعمارتهما ومصدراً لاهتمام المؤرخين والأثريين وأقدمهم الأزرقي مؤرخ مكة (ت: ١٩٩)[٣] وابن الحسن بن زبالة [٤] بكتابه المفقود "تاريخ المدينة وتاريخ مسجدها" (ت: ١٩٩هـ). لكن المؤرخين أكثروا من النقل عنه وبكتابات القرن الثالث نقلها ابن سعد وابن شبة وغيرهم[٥، ٦]، واهم ما بقى لدينا "شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام" للفاسي[٧]، "والدرة الثمينة في أخبار المدينة" لمحب الدين محمد بن محمد النجار (ت: ٥٩٣هـ)[٨] ثم "وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى" لنور الدين على بن احمد السمهودي (ت: ٩١١هـ).[٩] ، حققت تلك المراجع توصيفاً على الوضع الواقعي داخل الحرمين الشريفين على عهد كاتبيها. وهكذا فأساس التخطيط للمسجد الحرام ساحة المطاف التي تلتف حول الكعبة (شكل ١). فالكعبة يجمع تفاصيلها من الثوابت وكذلك بداية أشواط الطواف التي ينطلق من أهم ركن بها، الحجر الأسود. قام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتسوير ساحة المطاف وإزالة كل ما يلتف حول المطاف من المباني بقوة السلطان، واقتدى به الخليفة الراشد عثمان بن عفان عندما وسع المسجد الحرام وبنى رضى الله عنه أول رواق حول المطاف بالمسجد الحرام وبنى جدرانه بالحجارة وجعل أعمدته من الحجارة أيضا. أما أساس المسجد النبوي الشريف (شكل٢) فهو كما اختطه رسول الله ﷺ عبارة عن ظلة للصلاة محاطة بحوائط من ثلاث جهات ورحبة فسيحة بالوسط وظلة في مؤخر المسجد ثم وسع المسجد واتصل الجانبان بين الظلتين فيما بعد وتم زيادة ارتفاع جدارنه حين بناه ﷺ سبعة أذرع أي (٣,٥ م). وقد أدخل ﷺ على المسجد ثلاث تعديلات أثناء حياته وهي:

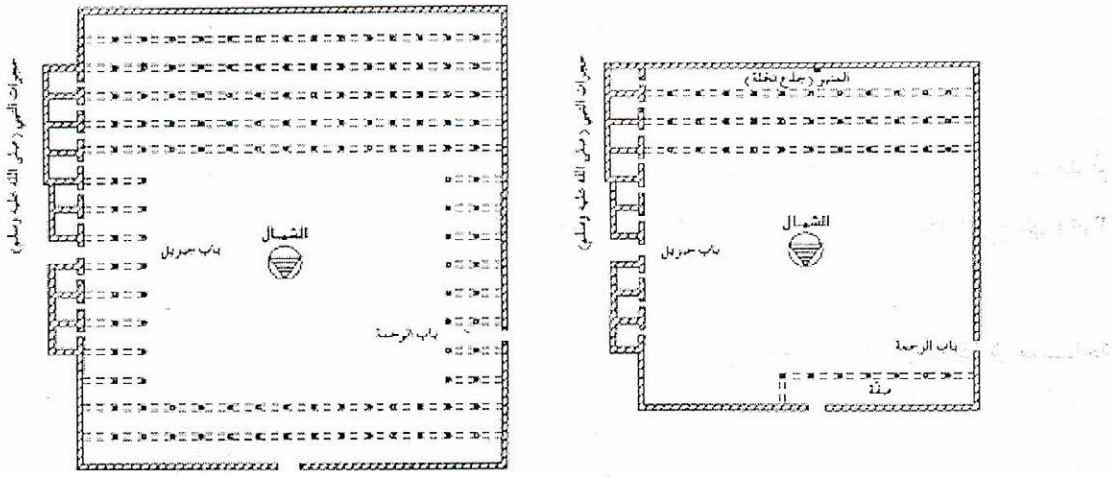
١ - أسلوب البناء. ٢- تغيير ظلة الصلاة عندما حولت القبلة من القدس إلى الكعبة. ٣ - زيادة في مساحة المسجد وارتفاع سقفه ويؤكد المؤرخون أن ذلك تمّ بعد سبع سنوات من بنائه الأول عندما ضاق المسجد بأهله جدد ﷺ سقفه في ظلته ثلاثة صفوف من تسع سوار من جذوع النخل، وصلى النبي ﷺ في منتصف جدار القبلة في الروضة الشريفة. ويعتبر محراب المسجد لأنه في صدر الصف، والمحراب أساساً هو صدر البيت.

أصلحه أبو بكر وزاد عمر في قبلته وبناه مثل بناء الرسول وزاد فيه عثمان سنة ٢٩هـ زيادة كبيرة وبنى جدرانه بالحجارة المنقوشة والقصة ٠(الجص) وجعل سواريه من حجارة منقوشة وسقفه بالساج ونقل إليه الحصباء وزاد في قبلته بقدر عشرة أذرع وزاد فيه إلى الشام عشرين ذراعاً وفي غربه قدر اسطوان أي عشرة أذرع ، وجعل له ستة أبواب ونوافذ مرتفعة بالجدارين الشرقي والغربي لمكان الصلاة، و لم تقم على الأساطين عقود بل امتد فوقها السقف على أوتار أو عوارض خشبية.[١٠]

ومنذ ذلك العهد أصبح مسجد الرسول بالمدينة أساس تخطيط ونظم المساجد الجامعة وهو أول عمل للمسلمين بالبلاد المفتوحة إلى جواره دار الإمارة أو قصر الخليفة. [١١]



الشكل ١: ساحة المطاف قبل التوسعة السعودية.



الشكل ٢: تصور لمسجد الرسول صلى الله عليه و سلم.

وجعل البهو أو الصحن الفسيح أساساً في تخطيط المسجد النبوي كمصدر لكفاية الضوء والتهوية داخل مكان الصلاة. وكان بلال مؤذن الرسول يدعو إلى الصلاة من فوق سطح المسجد أول الأمر ثم بدأ يؤذن من سطح حجرة حفصة زوجة رسول الله ﷺ ويرقى أقتاباً مثل الدرج ويؤذن، ويمكن اعتبارها أساساً للمئذنة.

أما المنبر فملحق بأثاث المسجد لا يدخل في تخطيطه حيث ثبت أن الرسول كان يخطب متكئا على جذع نخلة إلى أن صنع له ميمون من موالي الأنصار منبراً من درجتين ومقعد. وقد اتخذ المنبر في مسجد الرسول من مرقاتين أو عتبتين وقيل كان المنبر أولا من طين قبل أن يتخذ من خشب.[١٢] أما منبر المسجد فيوجد في الرواق الثالث من إيوان القبلة وهو موضوع بين محراب النبي والمحراب السليماني المعروف بالحنفي. الأول عن يساره والثاني عن يمنيه. وتمتد بين المنبر وقبر رسول الله ﷺ الروضة التي يبلغ طولها ٢٢ متراً وعرضها ١٥ مترا وتنتهي حدود الروضة من الجهة الجنوبية بحدود المسجد النبوي في عهد الرسول ﷺ وقد وضع سور نحاسي يفصل بين الروضة وبين حائط

المسجد القبلي أو بعبارة أخرى بين زيادة عثمان بن عفان والتي يشغلها الآن رواقان ويبلغ ارتفاع السور النحاسي الذي يفصل بين الروضة وحائط القبلة ما يقرب من مترين.[١١]

أما المقصورة فيذكر أن أول من استحدثها الخليفة عثمان ابن عفان رضي الله عنه سنة ٧ أو ٨ للهجرة.[١٠] والمحراب وهو صدر جدار القبلة ومكانه معروف في المسجد النبوي أيام الرسول ﷺ ويمكن اعتباره محراباً مسطحاً ، أما المحراب المجوف فقد استحدثه عمر بن عبد العزيز بالمسجد النبوي عندما وسع المسجد النبوي وقت الوليد بن عبد الملك سنة ٩١هـ.[١١]

ويوجد بإيوان القبلة ثلاثة محاريب مجوفة الأول في حائط القبلة الجنوبي وهو المعروف بالمحراب العثماني لأنه مبني في الزيادة التي أضافها عثمان بن عفان في الجهة الجنوبية من مسجد الرسول وفي الرواق الثالث من إيوان القبلة يوجد محراب ثان يعرف بمحراب النبي وذلك لأنه مبني في الضلع الجنوبي للمسجد الذي بناه الرسول ﷺ والمحراب الثالث إلى الغرب من محراب النبي ويعرف باسم المحراب السليماني نسبة إلى السلطان سليمان القانوني.[١٣] وفي الجزء الجنوبي الشرقي من المسجد بإيوان القبلة توجد الحجرة النبوية الشريفة المحاطة بمقصورة من النحاس الأصفر يبلغ طول كل من ضلعها الجنوبي والشمالي ١٦ متراً أما الضلع الشرقي والغربي فيبلغ طول كل منهما ١٥ متراً وبداخل المقصورة النحاسية بناء ذو خمسة أضلاع تمثل الشماليتان منها ساقي مثلث والثلاث الباقية تكون أضلاع المربع وارتفاع المبنى نحو ستة أمتار.[١٤]

وفي هذا المبنى المتعدد الأضلاع يوجد قبر الرسول ﷺ في الجهة القبلية الغربية ثم يليه من الجهة الشمالية الشرقية قبر أبو بكر الصديق ثم إلى الشرق قليلا قبر عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهذا البناء المقام حول قبر الرسول ﷺ وعلى صاحبيه رضي الله عنهما هو البناء الذي أقامه نور الدين زنكي لما بلغه اعتزام الصليبيين على محاولة إخراج الجسد الشريف فبنى ذلك البناء ونزل بأساسه إلى منابع الماء ثم افرغ عليه الرصاص حتى لا يستطيعوا له نقباً. وفي شمال المقصورة النبوية يوجد مقصورة نحاسية متصلة بالمقصورة الأولى يبلغ ضلعها الجنوبي ١٤ متراً أما الضلع الشمالي فيزيد نصف متر عن الضلع الجنوبي أما طول ضلعها الشرقي والغربي فيبلغ ٥,٧ متراً .[١٠] وتسمى هذه المقصورة مقصورة السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ وزوج على ابن أبي طالب وأم الحسن والحسين سبطي الرسول. ويوصل المقصورة الصغيرة بالمقصورة الكبيرة بابان بجدارهما الجنوبي ويوجد بالمقصورة الكبيرة باب في ضلعها الغربي يسمى باب الوفود أو باب الرحمة وإلى الجنوب من باب الرحمة وفي نفس الضلع الغربي للمقصورة الكبيرة يوجد نافذة تسمى (شباك التوبة) وللمقصورة الكبرى باب آخر في ضلعها الجنوبي وبالضلع الشرقي كما يوجد باب سادس قي الضلع الشمالي مخصص لدخول الأغوات لصيانة وتنظيف الحجرة الشريفة.

وفي شمال مقصورة السيدة فاطمة دكه الأغوات (الصفة) قيل أنها متهجد النبي ﷺ وتواجه الضلع الشمالي للمقصورة الصغيرة وهي مستطيلة الشكل يبلغ طولها ١٢ متراً وعرضها ٨ أمتار وارتفاعها عن ارض الإيوان القبلي ٤٠ سم.[١٠]

هذا ويوجد بالحجرة الشريفة كذلك ثلاثة محاريب فضلا عن محاريب إيوان القبلة السابق الإشارة إليها وهكذا يصبح عدد محاريب المسجد والحجرة الشريفة ستة أما عن محاريب الحجرة الشريفة فهي محراب التهجد وهو خلف حجرة السيدة فاطمة خارج المقصورة النحاسية المحيطة بها وعلى الحجرة الشريفة من جهة الشمال ويقال إنه متهجد الرسول ﷺ والمعروف أن تهجده في غير قيام رمضان كان بيته وقد جدد هذا المحراب في عمارة السلطان عبد المجيد وكتب عليه ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾.[١١]

أما المحراب الخامس فهو إلى الجنوب من محراب التهجد ويعرف بمحراب فاطمة وهو داخل المقصورة التي تحيط بحجرة فاطمة أما المحراب السادس فيقع إلى الشمال من دكة الأغوات أو مسطبتهم وهو محراب حديث عمل في العمارة العثمانية وكان موضعه مصلى شيخ الحرم في العهود السابقة ويصلى به الآن شيخ الحرم صلاة التراويح.[١٠]

الثوابت بالمسجد الحرام

١ – ساحة المطاف

بعد بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الكعبة المشرفة بقيت المساحة حول الكعبة (المطاف) فضاءاً غير محاطة بجدار، يطوف حولها حجاج وعمار البيت. وقامت حولها الدور المدورة من عهد قصي بن كلاب الجد الرابع للرسول ﷺ.[١٣] وبعد الفتح العظيم طاف رسول الله ﷺ على ناقته حول البيت وأكد مبتدأ هذه الشعيرة العظيمة من ركن الحجر الأسود وجعله من الثوابت ويسر ﷺ على أمته استخدام المركوب أو المنقول في أداء هذه الشعيرة العظيمة مثل (الكرسي المتحرك أو السرير المحمول على الأكتاف وخلافه)حتى لو كان الطائف قادراً اتخذ ﷺ المساحة حول الكعبة مسجداً لتأدية الصلوات المكتوبة، وعندما ضاقت هذه الساحة بالطائفين هدم عمر بعض الدور حولها، وأقام جداراً قليل الارتفاع ليمنع السائب من الحيوانات دخول هذه البقعة المباركة ، ثم وسعها عثمان وأقام بها رواقاً حولها، ومن بعده عبد الله بن الزبير.[١٥]

أما الوليد بن عبد الملك الأموي فقد نقل إليها أساطين الرخام وأقام السقف وزخرفه ثم توالت التوسعات إلى يومنا هذا. والمطاف ثابت المكان إلا أن دائرته تختلف باختلاف أعداد الطائفين ، فكلما ضاق بهم ازدادت دائرته (شكل ٣).

هناك العديد من الثوابت في المسجد الحرام أهمها:

٢ – الكعبة

أول بيت وضعه الله للناس على الأرض وهو البيت الحرام القبلة التي اختارها الله للمسلمين يتجهون إليها وقت صلاتهم حيث يقول سبحانه وتعالى ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعلمين ﴾.[آل عمران، آية ٩٦]

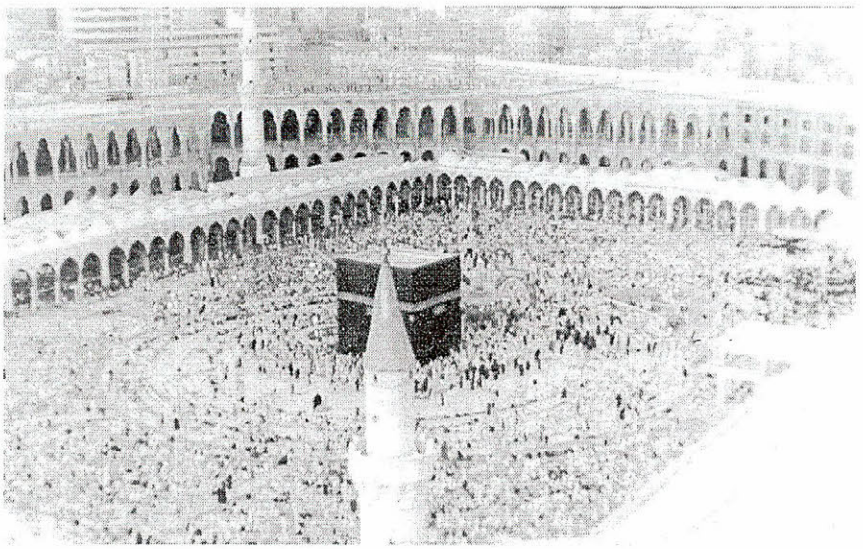
فهي ثابتة المكان بجميع التفاصيل الملحقة بها والتي هي جزء من شعائر الطواف والصلاة.

أما فيما يخص أحجار الكعبة ومواد تسقيفها وكسوتها وأبوابها فهي من المتغيرات التي كلما بلي منها شيء أعيد مكانه آخر (شكل٤).

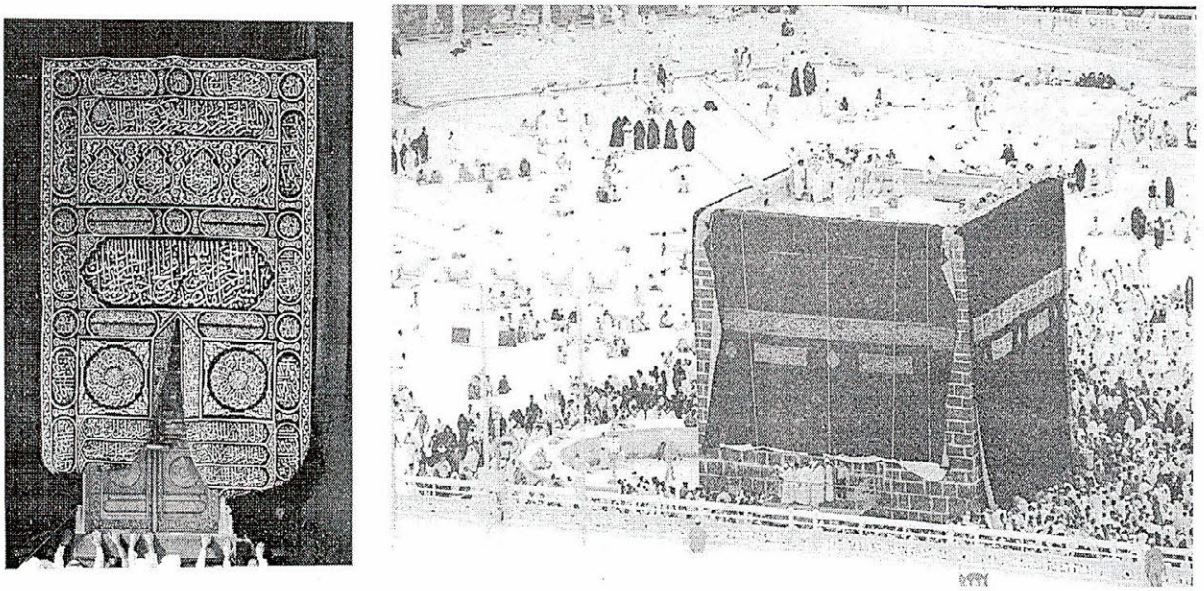
ثوابت تفاصيل الكعبة

أ – الحجر الأسود

الحجر الأسود مثبت في الركن الشرقي للكعبة مبتدأ دائرة أشواط الطواف وقد وضعه رسول الله ﷺ في مكانه الحالي قبل خمس سنين من مبعثه عندما بنى المشركون الكعبة واختلفوا فيمن يضعه، واستقر بهم الرأي أن أول من يدخل الحرم له شرف وضع الحجر في مكانه فكان له ﷺ ذلك.

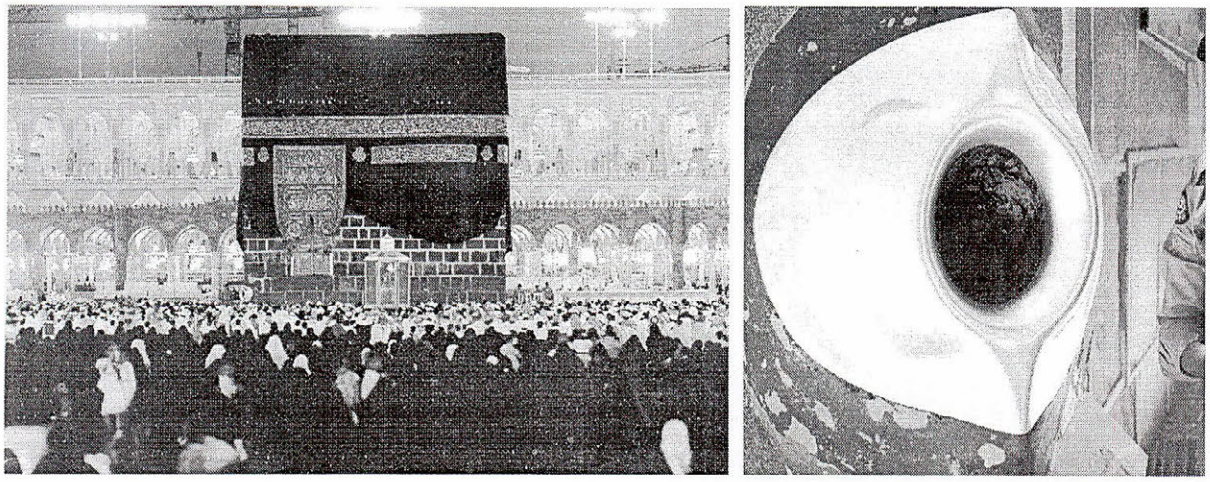


شكل ٣: زيادة دائرة الطواف تعتمد على مقدار الزحام.



شكل ٤: كسوة الكعبة.

ومن عند الحجر الأسود تبدأ أشواط الطواف السبعة ودائرة المطاف تتسع وتضيق حسب كثافة الطائفين وما دام الإنسان يرى الكعبة من أي مستوى فدائرة الطواف له اختيارها لكن محيطها يطول عليه (شكل٥).



الشكل ٥: الحجر الأسود في الركن الأيمن من الكعبة المشرفة و هو مبتدأ دائرة الطواف.

ب – الركن اليماني

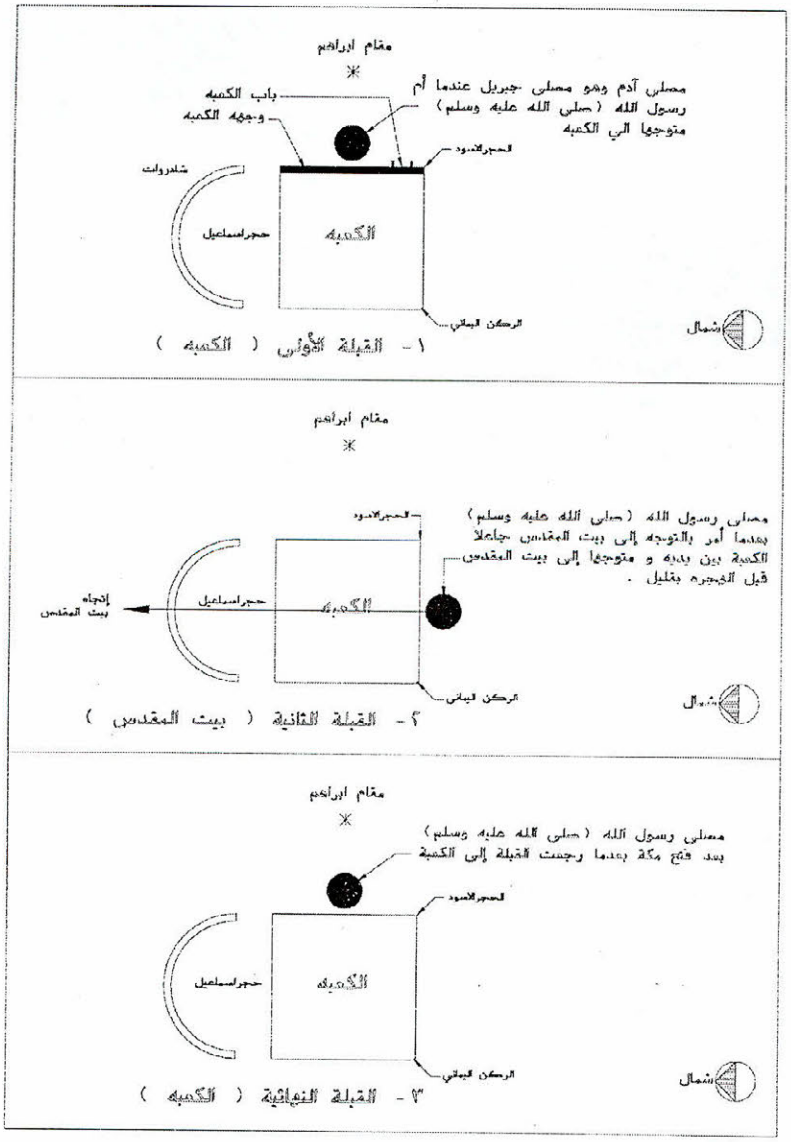
هو ركن الكعبة المشرفة وهو يسبق الحجر الأسود في الطواف ولهذا المكان فضائل عظيمة، ومزايا جليلة وأعظم فضيلة له هي أن المصطفي ﷺ استلمه بيده الشريفة وكان يفعل ذلك كثيرا فصارت سنة نبوية ثابتة مشروعة ومن فضائله هو والركن الأسود أنهما لا زالا على القواعد الأولى للبيت التي رفعها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام(شكل٦).[١٥]

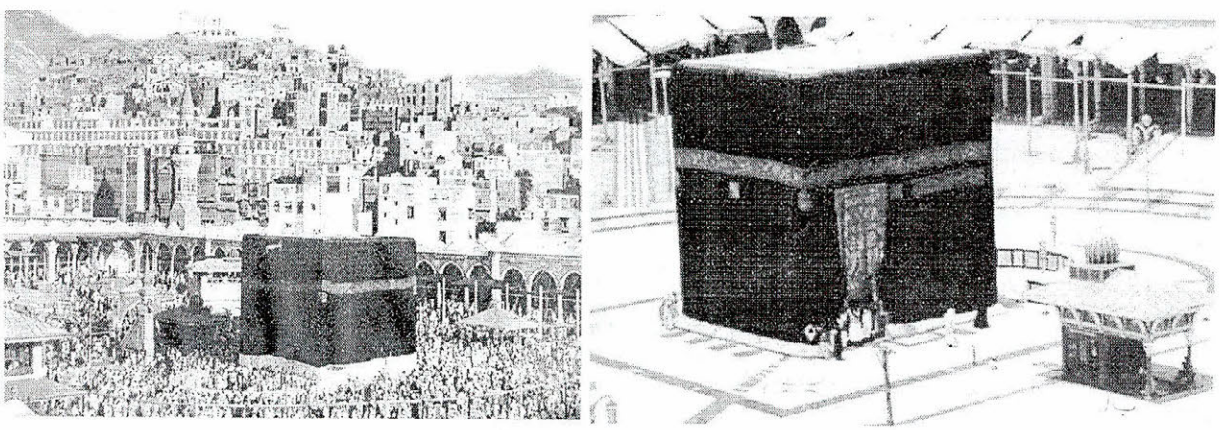
جـ – حجر إسماعيل

حجر إسماعيل عليه السلام هو الحائط نصف الدائري الواقع شمال الكعبة المعظمة جعله إبراهيم عليه السلام عريشا إلى جانب الكعبة.[١٦] وهذه الرواية تدل على أن الحجر لم يكن من البيت المعظم وإنما كان خارجا عنه، غير أنه لما بنت قريش الكعبة أنقصت من جانبها الشمالي ستة أذرعا وشبرا على أشهر الروايات وأدخلته في حجر إسماعيل[١٧]. ويسمى الحجر أيضا الحطيم. لأن الناس يزدحمون على الدعاء عنده ويزاحم بعضهم بعضا (شكل٧).[١٥]

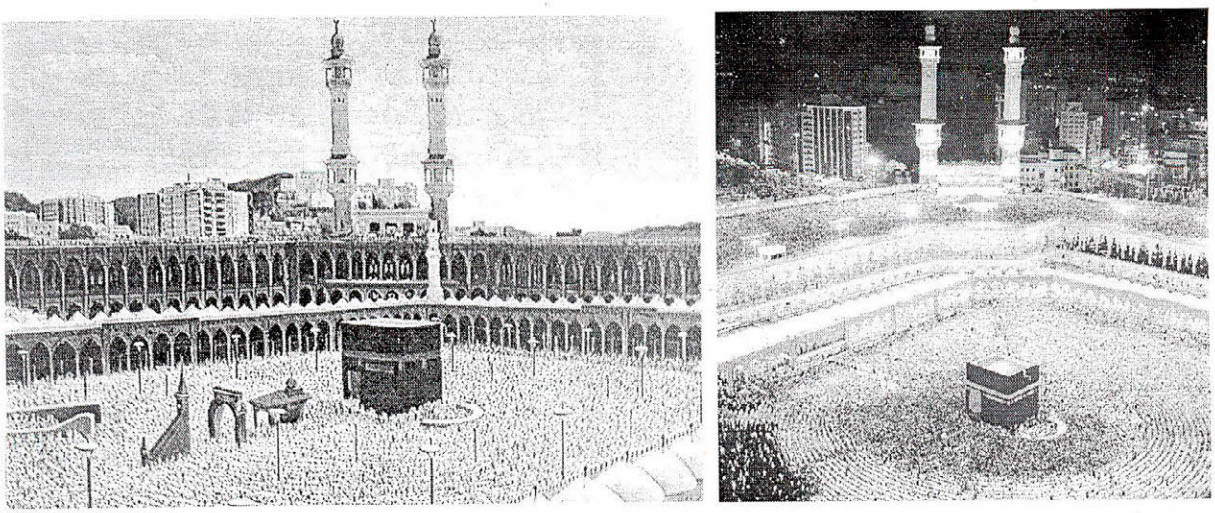
د – الملتزم

الملتزم هو ما بين الحجر الأسود وباب الكعبة وسمي بالملتزم لان الناس يلزمونه ويدعون عنده وفضله عظيم (شكل٨).[١٥] وثبت أنه من المواطن التي يستجاب فيها الدعاء وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما





الشكل ٦: الركن اليماني



شكل ٧: حجر اسماعيل عليه السلام (الحطيم).

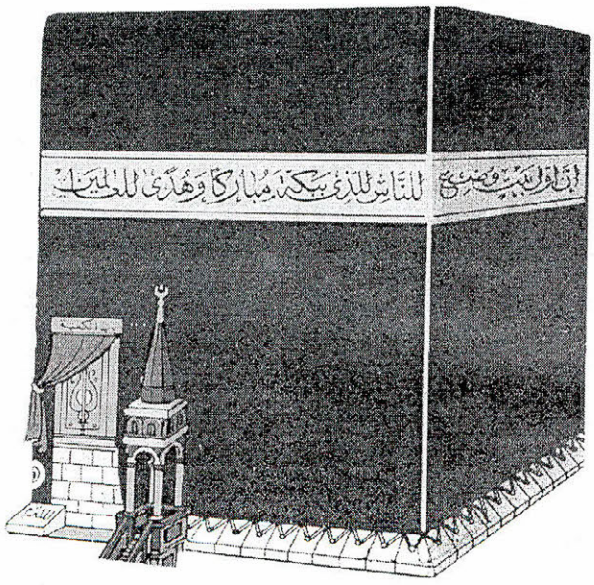
وقد التزم بين الباب والحجر هذا والله المكان الذي رأيت رسول الله ﷺ التزمه وقد قال رسول الله ﷺ الملتزم موضع يستجاب فيه الدعاء ما دعا الله فيه عبد دعوة إلا استجابها.

فرض وجود الكعبة المشرفة وسط ساحة المسجد الحرام نمطا تخطيطه محدد على مر العصور فمكانها ثابت وعناصرها ثابتة. وهي مركز الطواف ابتداء من ركن الحجر الأسود وشعيرة الطواف هي سنة المسجد وهي التي حكمت مشاريع كل من عمر ووسع المسجد الحرام منذ فعل ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكان ما حدث من إزالة البيوت التي أحاطت الكعبة يؤمئذ وإنشاء أول سور للمسجد الحرام ثم ما كان من توسعة عظيمة وإنشاء أروقة حول المطاف على عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ومنذ ذلك الحين تزداد ساحته المطاف وتزداد الأروقة تبعا لازدياد الحجاج والعمار والطائفين والركع السجود.

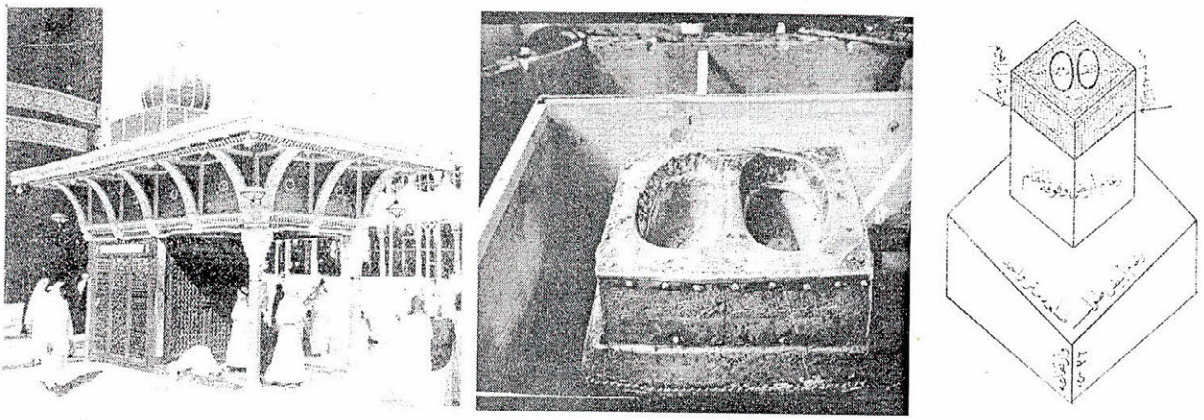
٢ – مقام إبراهيم

قال تعالى: ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ [آل عمران: آية ٩٧] يعني المسجد الحرام وقال تعالى: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ [البقرة : آية ١٢٥] ، أي الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه السلام عند بناء البيت وأثر قدميه فيه إلى الآن رغم تطاول الزمان (شكل٩). وخلف هذا المقام كان إبراهيم عليه السلام يصلى ويفضل أن يؤدي الطائف حول الكعبة ركعتي الطواف خلف هذا المقام إذا لم يكن بذلك مضايقة للطائفين.

إعادة وضع مقام إبراهيم عليه السلام في مكانه الذي هو عليه الآن من عمل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك أنه جاء سيل أم نهشل في خلافته سنة سبع عشرة من الهجرة وكان سيلا عظيما حيث اقتلع المقام



شكل ٨: الملتزم.



الشكل ٩: مقصورة و مقام ابراهيم عليه السلام و آثار قدماه.

من موضعه وذهب به، فلما جف الماء وجدوه أسفل مكة فأتى به والصق في وجه الكعبة وربط بأستارها. وكان عمر يومئذ بالمدينة فلما بلغه ذلك هاله الأمر وركب من ساعته فزعا إلى مكة فدخلها بعمرة في رمضان من السنة المذكورة فلما دخل المسجد الحرام ووقف على حجر المقام وقال أنشد الله عبدا عنده علم في هذا المقام فقال المطلب بن أبي وداعة السهمي رضي الله عنه: أنا يا أمير المؤمنين عندي علم بذلك فقد كنت أخشى عليه مثل هذا الأمر فأخذت قدره من موضعه إلى الركن، ومن موضعه إلى باب الحجر، ومن موضعه إلى زمزم بمقاط وهو عندي في البيت. فقال عمر: فاجلس عندي وأرسل إليها فأتي بها فمدها فوجدها مستوية إلى موضعه هذا فسأل الناس وشاورهم فقالوا نعم هذا موضعه فلما تثبت عمر رضي الله عنه من ذلك أمر به فاعلم ببناء تحت المقام ثم وضعه فهو في مكانه اليوم. [١٥] وعمل هذا الصحابي الجليل أحسن من عمل الكثير من المساحين في توقيع نقطة مهمة من الثوابت في المسجد الحرام.

إن مقام إبراهيم عليه السلام شأنه جليل. فهو مقام مقدس لا يستهان بأمره وهو كالحجر الأسود يرتبط أمرهما بالكعبة المشرفة إلى أن تقوم الساعة فخليق بعمر رضي الله تعالى عنه أن يحضر من المدينة إلى مكة سريعا عندما بلغه خبر السيل الذي اقتلع المقام من محله وذهب به إلى اسفل مكة. فخلف هذا المقام يقوم إمام الحرم بالصلاة في الأوقات العادية وصلاة التهجد. أما أوقات الزحام فإن الأمام يصلي في مصلى رسول الله ﷺ بين باب الكعبة وركن الحجر الأسود الذي يسمى مصلى جبريل أو مصل آدم عليهما السلام.

من الجدير ذكره أن موقع المقام وتحديد مكانه هو من الثوابت الأساسية في الحرم المكي الشريف، ولكن شكله وحجمه من المتغيرات التي طرأ عليها بعض التغيير مع الزمن وكان آخرها تصغير حجمه للحاجة الضرورية لتوسعة مساحة المطاف.

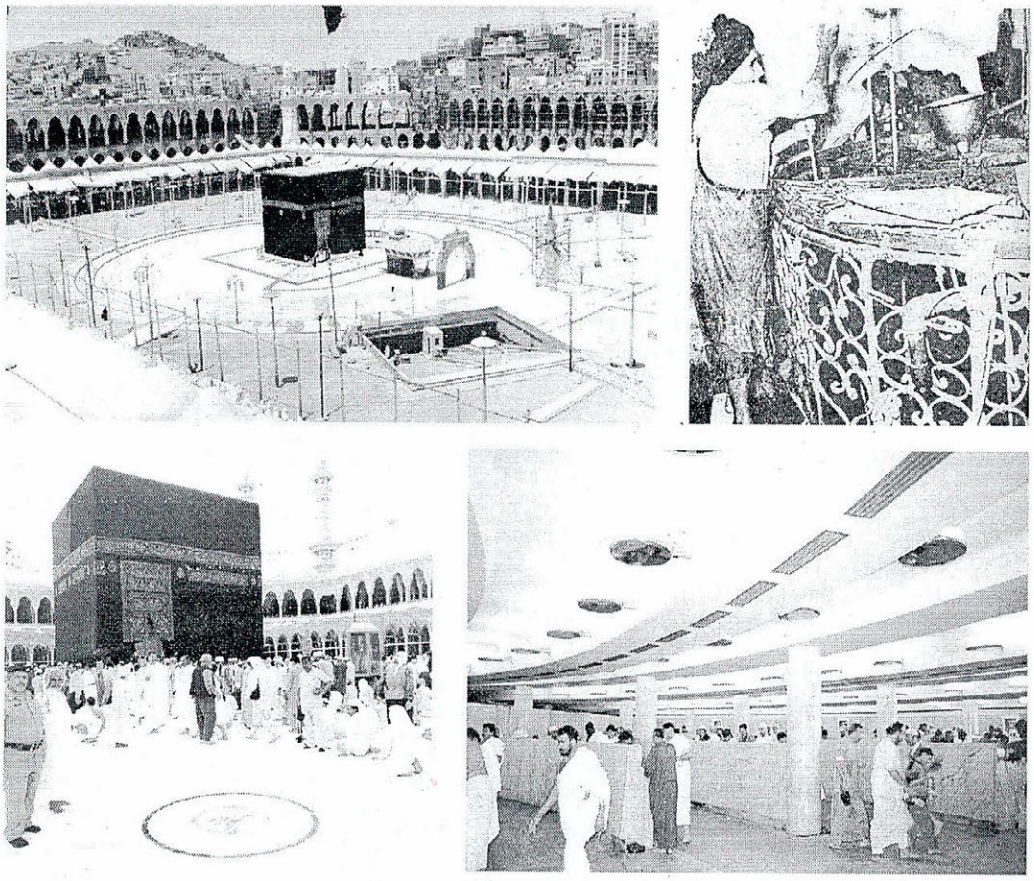
٣ – زمزم

هو ذلك البئر الذي حدث نبعه بمعجزة إلاهية. ومنذ ذلك الحين بدأت أفئدة من الناس تهوي إلى السكن قرب المسجد الحرام استجابة لدعاء أبينا إبراهيم عليه السلام ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾. [سورة إبراهيم، آية ٣٧] فمكان البئر ثابت حتى لو غطى بطابق واصبح الحجاج والمعتمرين وزوار المسجد يطوفون فوقه (شكل ١٠).

٤ – الصفا والمروة

هما جبلان تبدأ من الأول شعائر السعي وينتهي الشوط السابع منه عند الآخر (شكل ١١). ومن جبل الصفا يمكن للحاج أو المعتمر رؤية الكعبة. وقد فرض الله السعي على الحاج والمعتمر بعد ذلك اقتداء بأم إسماعيل عليهما

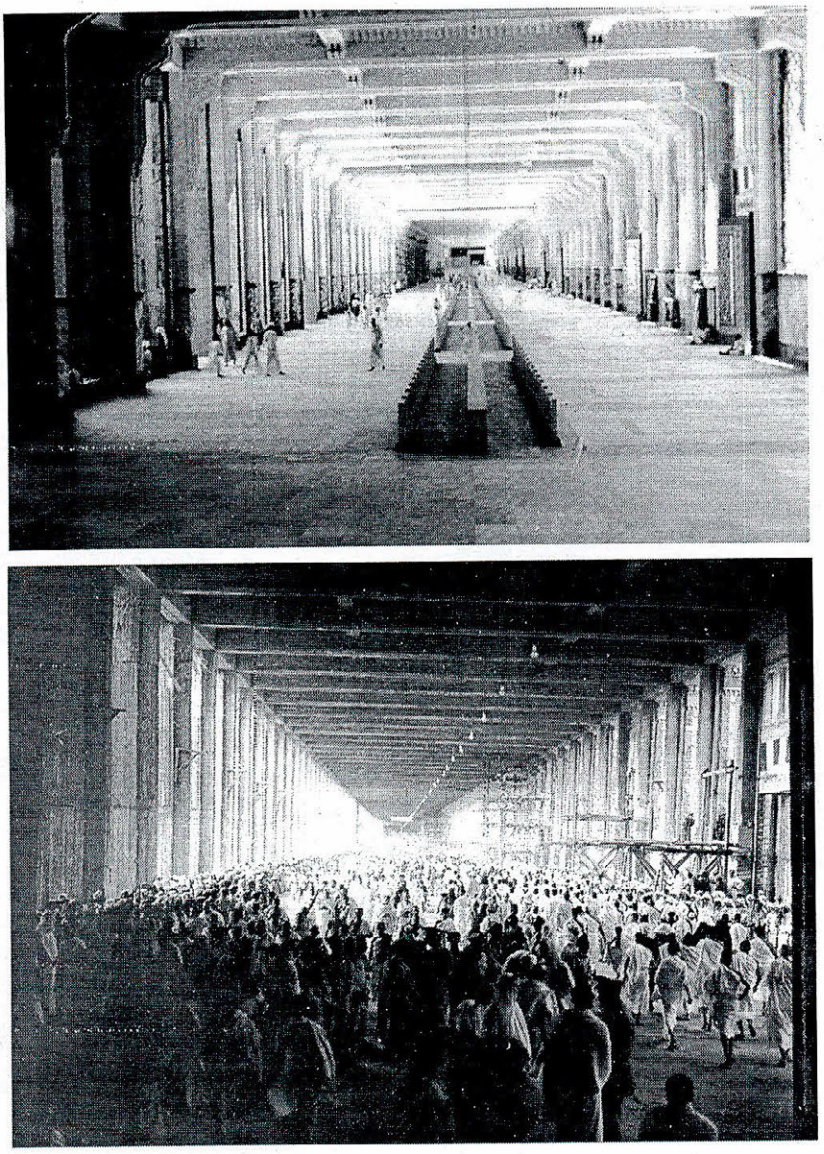
السلام حيث قال سبحانه ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم﴾ [البقرة، آية ١٥٨]



شكل ١٠: بئر زمزم.

أروقة المسجد

أول من بنى الأروقة هو الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ عندما وسع المسجد. توالت بعد ذلك بناء الأروقة واستخدم العديد من تقنيات بنائها مثل بنائها بالعقود وتسقيفها بالساج المنقوش واستخدام طبقتين للتسقيف علوية لمقاومة ظروف الجو وداخلية للتمكين من عمل زخرفة ونقش عليها دون تعرضها لمياه الأمطار وكذلك لتخفيف حدة الحرارة بإيجاد سقف مجوف يمكن طرد حرارته قبل نفاذها للداخل وكذلك استخدام القباب كما نراها في الرواق العثماني المحيط بالمسجد الحرام من الداخل وقد استخدمت لأول مرة الطوابق المتعددة للصلاة من طوابق سفلية وعلوية والسطح في عمارة وتوسعة الملك سعود (شكل١٢).



شكل ١١: السعي بين الصفى و المـــروة.

العناصر الملحقة بالمسجد الحرام

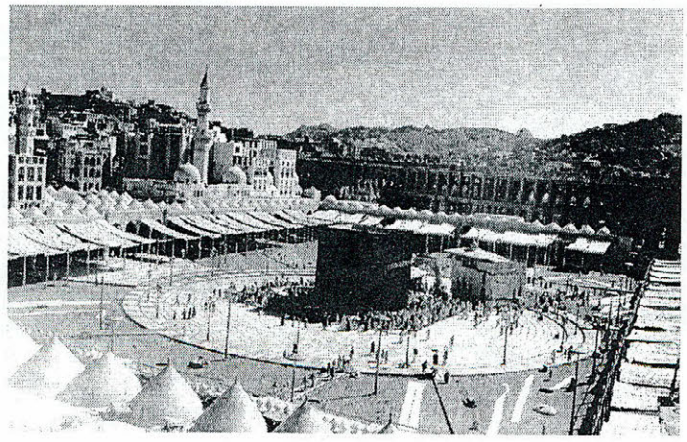
الطابق العلوي للمسعى

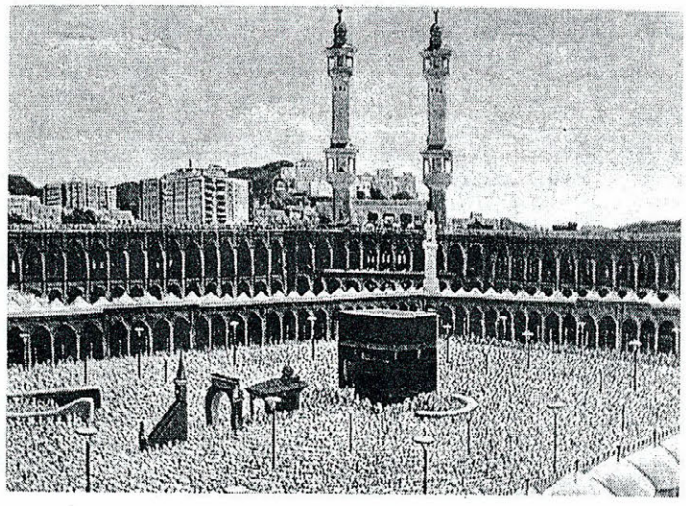
استحدث الطابق العلوي بالمسعى وهي للحجاج والمعتمريـــن في التوســعة الســعودية الأولى للمســجد الحــرام وذلــك للتخفيف من الزحام في الدور الأرضـــي (شــكل١٣).

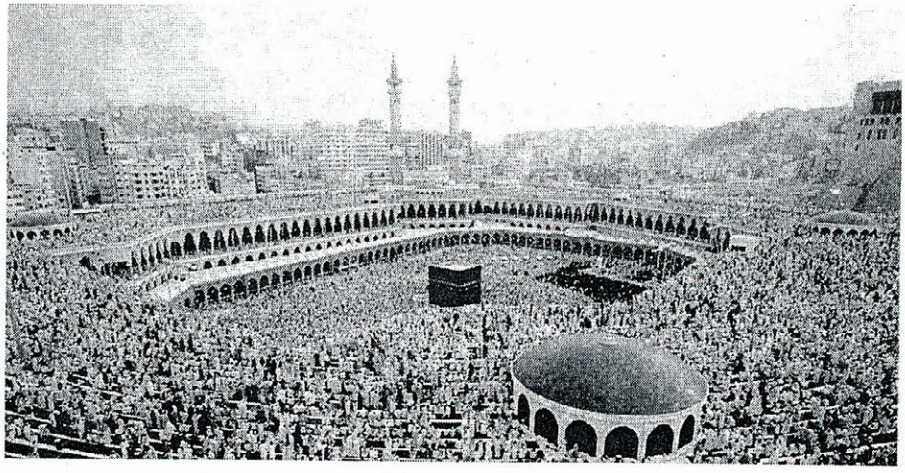
مآذن المسجد

تعدد وجود المآذن بالحرم المكي الشريف منذ عمارة المهدي العباسي وقد تعــددت مــن أربــع منــارات إلى ســبع ثم إلى تسع في توسعة خادم الحرمين الشريفين وقد كان هدفها الأساسي التبليغ للصلاة حيث كـــان يرتقـــي إليـــها لـــذا كـــان

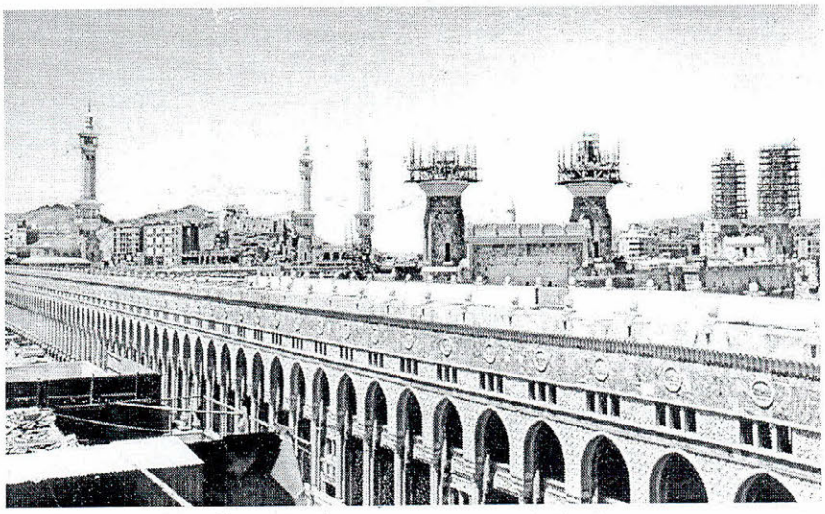
ارتفاعها مناسبا لصعود المؤذن. المؤذنون بوقت واحد ويؤذنون بصوت واحد. أما بعد إدخال مكبرات الصوت فأصبح دورها مكمل مكبرات الصوت وبدأت تأخذ ارتفاعا شاهقا زاد عن ٩٤مترا في مآذن المسجد الحرام الجديدة (شكل١٤).







شكل ١٢: أروقة المسجد.



شكل ١٣: الطابق العلوي للمسعى.

وقد تفنن المعماري المسلم في تصميم المآذن وأدخل عليها عناصر جمالية تزيد من رونقها كما أن مصممي الإضاءة أصبحوا يتفننون في إضاءتها وإسقاط النور عليها.

أماكن المحراب وإقامة الصلوات

هناك العديد من الأماكن التي يوضع فيها المحراب بالمسجد الحرام ففي الأوقات العادية يصلي الإمام خلف مقام إبراهيم وفي أوقات الزحام مثل الجمع والأعياد فهو يصلي في مصلى النبي يمن الداخل للكعبة أما في أوقات صلاة التراويح والقيام فإن الأمام يفسح المجال للطائفين ويوضع له المحراب قرب الأروقة (شكل١٥).

يعتبر وجود الساتر التي يقوم به المحراب أو العنزة من الثوابت فإن مكانه يعتبر من المتغيرات.

وقبل حكم الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود كانت تقام أربعة صلوات لكل فريضة بأئمة مختلفين (حنفي، شافعي، مالكي وحنبلي) وظل إمام الحنفية يبتدئ بالصلاة في جميع الأوقات يتلوه أئمة المالكية فالشافعية فالحنابلة إلا في صلاة الصبح فيبدأ بها إمام الشافعية. ولقد نتج عن صلاة الجماعات المتعددة إلى الفرقة وكأنها أديان مختلفة حتى قام رحمه الله بإصدار قرار إلى تجميع المصلين وراء إمام واحد في الحرمين الشريفين في الصلوات الخمس والتراويح والجمع والأعياد فجزاه الله خير الجزاء. [١٨]

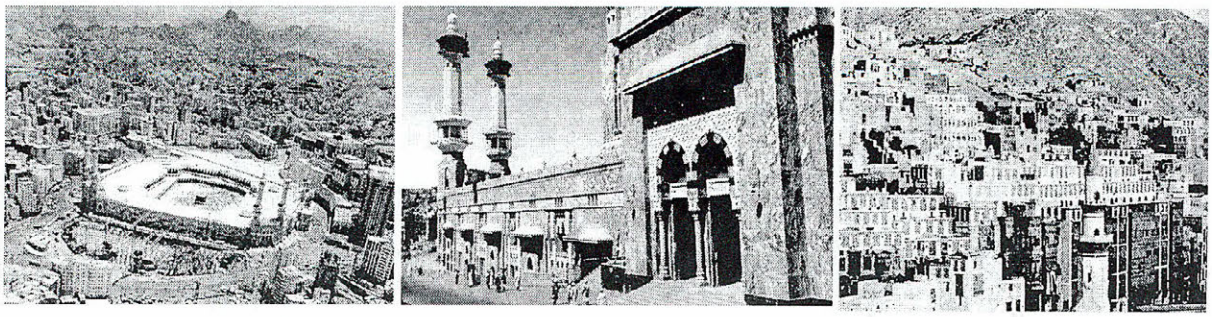
المكبرية

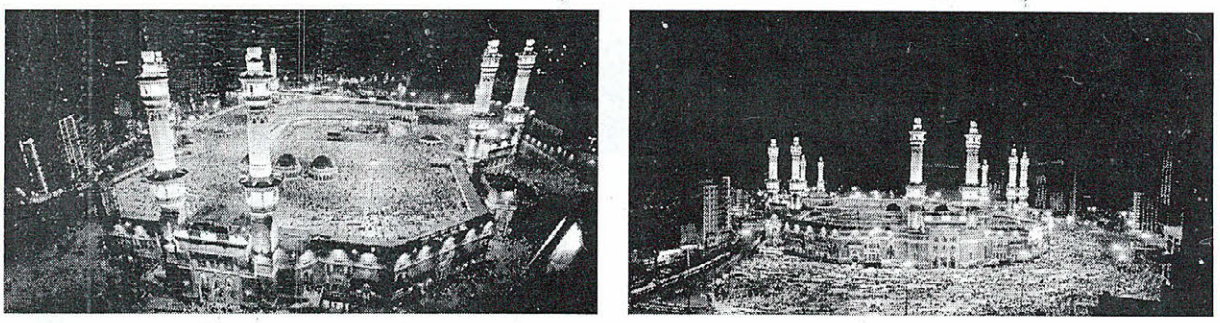
هي عبارة عن سقيفة مرتفعة يرتقيها المؤذن ويتابع تكبير وتحميد الإمام وتسليمه ليوصل صوته إلى الصفوف البعيدة وموقعها وشكلها يعتبر من المتغيرات (شكل١٦).

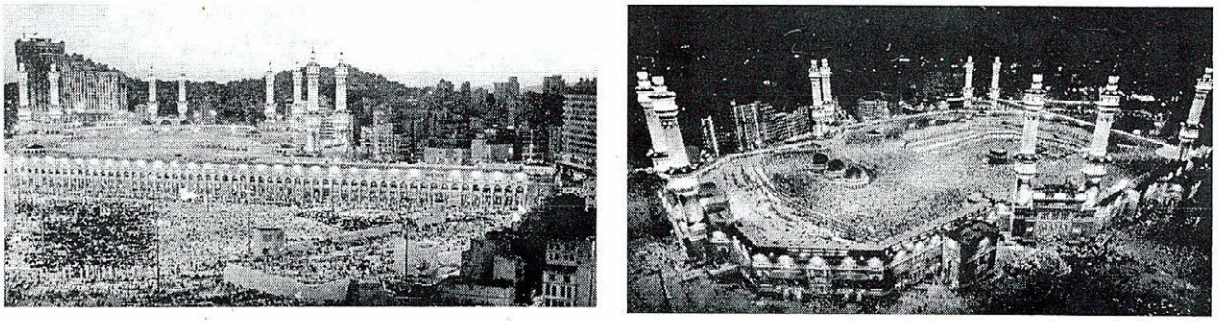
الميضأة ودورات المياه

يحرص الكثير من رواد المسجد الحرام أن يكونوا على طهارة دائمة لذا فكلما قرب مكان الوضوء سهل عليهم هذه المهمة. وقد تعددت أماكن وأشكال هذه على مر العصور وحسب ما تقتضيه أمور التصميم للمسجد (شكل١٧).

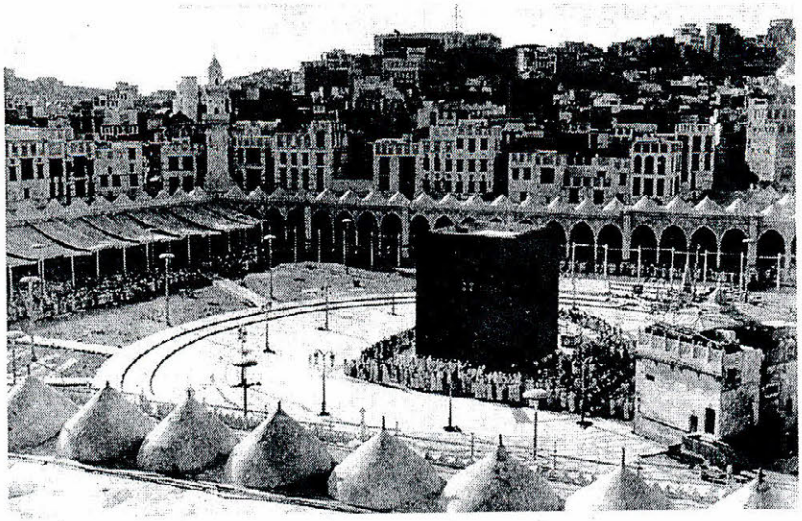
وقد سهلت تقنيات التغذية والصرف للمياه وكذلك التهوية للأماكن الرطبة من جعل الكثير من هذه العناصر في متناول المستخدم ونرى تكثيف مثل هذه العناصر في شمال وجنوب المسجد الحرام وقربها من المداخل المؤدية للمسجد.

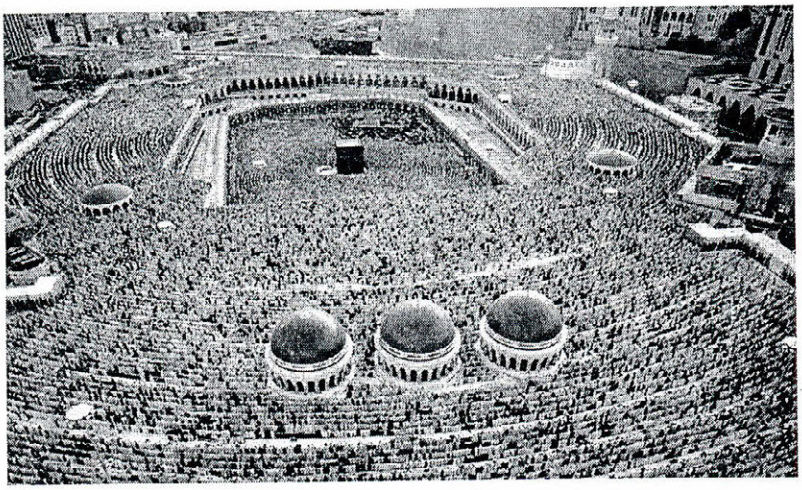


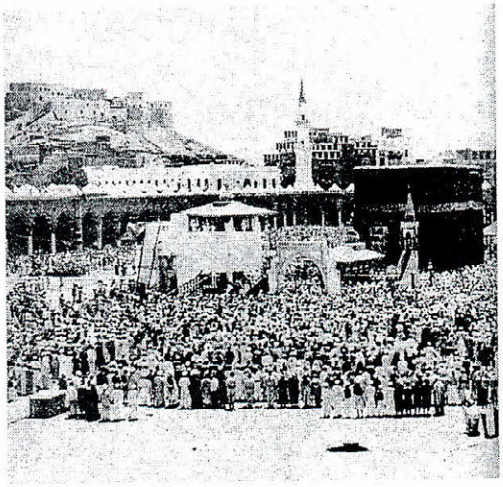


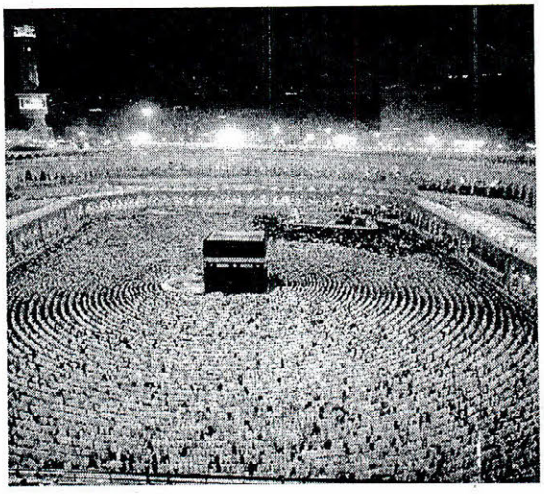


شكل ١٤: مآذن المسجد الحرام.



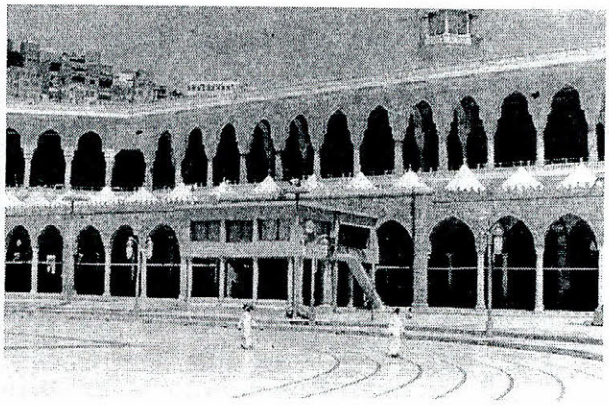






شكل ١٥: أماكن إقامة الصلوات.

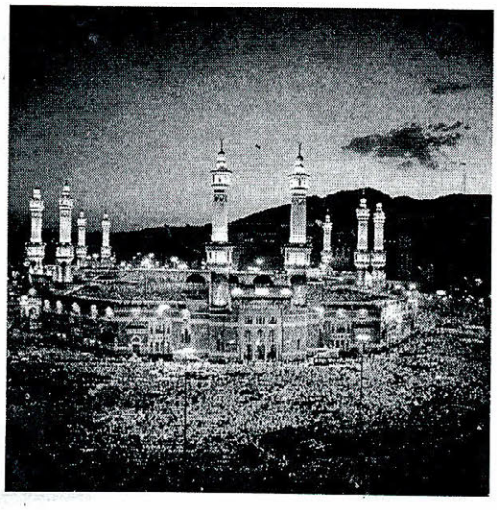






شكل ١٦: المكبرية





شكل ١٧: الساحات و الميضأة – الحرم المكي.

الساحات

الساحات المحيطة بالمسجد الحرام من العناصر العمرانية التي ألحقت بالمسجد في التوسعات السعودية وذلك لما لهما من دور كبير في سرعة انتشار المصلين بعد انتهاء الصلاة وخاصة أيام الجمع والأعياد وصلوات التراويح والقيام. كما أنها تشكل امتداد لصفوف المسجد في تلك الظروف أما في الحالات العادية فهي عبارة عن أماكن مفتوحة.

الثوابت بالمسجد النبوي الشريف

المسجد النبوي

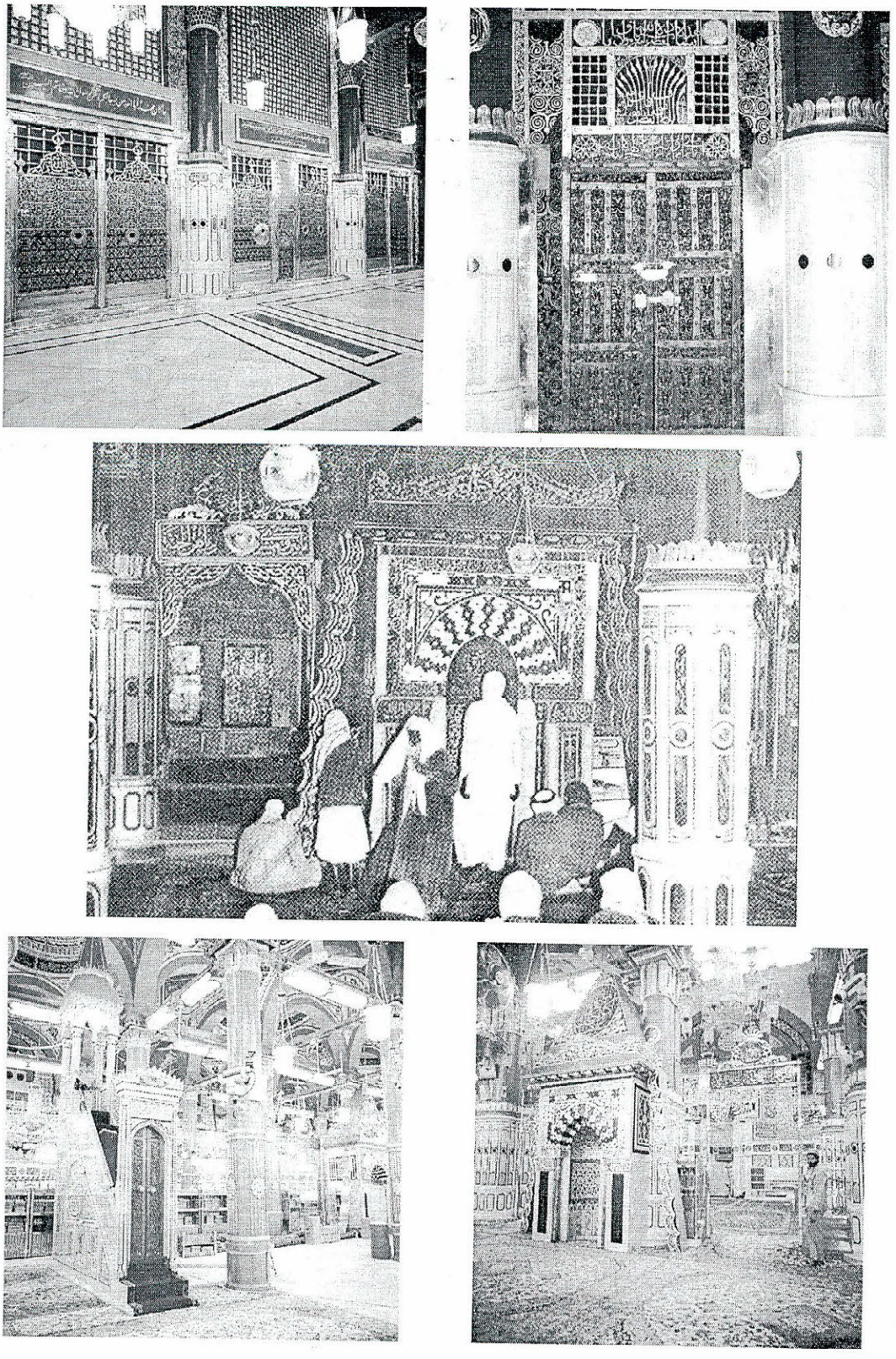
من المؤكد أن تصميم المسجد النبوي وتوسعته على عهد الرسول ﷺ قد وضع اللبنة الأولى في تصميم التوسعات اللاحقة والمساجد الإسلامية. في البداية كان فراغاً مفتوحاً محدداً ثم أضيفت له ظلة شمالية فوق صفوف أعمدة عبارة عن سقف باتجاه بيت المقدس وبعد أن حولت القبلة إلى الكعبة عملت ظلة جنوبية باتجاهها وحدود جدار القبلة مع حصوة (صحن كبير) بينهما. و لم يتحول مسقط المسجد النبوي إلى صحن محاط بأروقة إلا عند إعادة بنائه في عهد الوليد بن عبد الملك على يد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه سنة ٨٨-٩١هـ وفي هذه الفترة ظهر أول محراب مجوف في عمارة المساجد إلا أنها كانت في السابق محاريب مسطحة.[١١١] وفي الحصوة استعيض عن المحراب المسطح بالعنزة (العصا) التي كان يضعها ﷺ أمامه في الصلاة وتسمى المحاريب في الفضاء الخارجي للمساجد اصطلاحاً العنزة كما نراها الآن في مسجد القرويين بفاس.

جعل النبي ﷺ لمسجده في المدينة المنورة ظلتين: ظلة القبلة (الجنوب) وظلة الشام (الشمال) وجعل بين هاتين الظلتين رحبة تفصل بينهما وهذه الرحبة هي التي تحولت في المسجد إلى ما يعرف باسم الصحن أو الحصوة. وظلة المسجد وهو القسم المسقوف من المسجد ويقع ناحية القبلة وقد وجدت الظلة مع مسجد الرسول ﷺ في المدينة ظلة الشام عندما كانت قبلة المسلمين بيت المقدس، وظلة الجنوب الآن عندما تحولت القبلة إلى الكعبة المشرفة وتسمى ظلة القبلة وتحوى الروضة الشريفة. وفي ظلة مسجد رسول الله ﷺ عناصر وضعها وحددها بنفسه ﷺأهمها : الروضة الشريفة وجدار القبلة ومحراب الصلاة المستقيم، المنبر، الصفة والسواري، وقد أضاف خلفاء المسلمين عناصر ملحقه بالظلة مثل المحراب المجوف والمقاصير والأساطين (الأعمدة) تعلو سقفها سقوف جذوع النخل والطين ومن ثم القباب والخرسانة المسلحة.

هناك العديد من الثوابت في المسجد النبوي ومحيطه العمراني أهمها:

الروضة النبوية المطهرة

هي موضع في المسجد النبوي الشريف الواقع بين المنبر وحجرته ﷺ (شكل١٨). في الصحيحين حديث عبد الله بن زيد المازني رضي الله عنه "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة" زاد البخاري من حديث أبي هريرة:



شكل ١٨: الروضة الشريفة

"ومنبري على حوضي". وذهبت طائفة من أهل العلم منهم الإمام مالك الذي حمل الرأي على ظاهره بأنها روضة من رياض الجنة تنقل إلى الجنة وأنها ليست كسائر الأرض تذهب وتفنى ووافقه على ذلك جماعة من العلماء. [١٩]

إن ذرع ما بين المنبر والبيت الذي فيه القبر الآن ثلاث وخمسون ذراعا وقيل أربع وخمسون وسدس وقيل خمسون إلا ثلثي ذراع وهو الآن كذلك فكأنه نقص لما ادخل من الحجرة في الجدار. [١٩]

جدار القبلة

يعتبر تحديد جدار القبلة في المسجد النبوي الشريف معجزة نبوية تتراءى للمرء على مر الزمان إذ أن المسافة البعيدة بين الكعبة المشرفة وموقع مسجد رسول الله ﷺ تزيد عن ٤٥٠ كلم. وتم تحديد القبلة دون الرجوع إلى أي آلة مساحة حيث زوى جبريل عليه السلام الأرض ورأى رسول الله ﷺ الكعبة نصب عينيه وحدد جدار القبلة بنفسه. [٢٠]

مصلى الرسول ﷺ

المنبر: هو مرتفع مواجه للمصلين يرتقيه الخطيب ويخبرنا رواة الحديث أن الرسول ﷺ كان يقف أول الأمر ويستند إلى جذع نخلة في المسجد عندما يلقي خطبته فاقترحت عليه إحدى الصحابيات أن يصنع له ابنها النجار منبرا من الخشب فاستجاب ﷺ لهذا الطلب بأن صنع له منبرا من ثلاث درجات مرتفعة كي يراه الناس وعندما اعتلى ﷺ صلوات الله وسلامه عليه المنبر الجديد ذي المراقي حن الجذع و لم يسكت عن الحنين حتى وضع عليه يده الشريفة فسكت. [١٠]

ووضع في الجانب الغربي من مصلاه ﷺ ، وما زال المنبر في موضعه الأصلي رغم الزيادات والأحداث التي طرأت عليه. وفضل منبر رسول الله ﷺ أنه جدد به الروضة الشريفة. وذكر بعض من أهل العلم أن المنبر يعاد بعينه على حاله فينصب عند حوضه كما تعود الخلائق أجمعون.

الاسطوانات (السواري)

بنيت على عهد رسول الله ﷺ من جذوع النخل وهي متعددة مثل (القرعة) واسطوانة أبي لبابه الانصاري رضي الله عنه أسطوانة عائشة واسطوانة السرير واسطوانة المحرس واسطوانة الوفود، وتفيد الروايات أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتسابقون إلى أسطوانات المسجد للصلاة عندها. فقد روى البخاري عن أنس قال "لقد رأيت كبار أصحاب النبي ﷺ يبتدرون السواري عند المغرب" والاسطوانات الموجودة في العمارة المجيدية قد وضعت في أماكنها الأصلية وقد عرف ذلك بالتواتر في البناء. فكل من قام بتوسعة وعمارة مسجد رسول الله ﷺ أهتم ببناء كل أسطوانة في مكانها. وذكر البرزنجي في نزهة الناظرين أن معماري العمارة المجيدية صالح أفندي رأى أن يزيل بعض الأساطين ويغير موضعها لتوسعة المسافة بينها لكنه لم يتمكن من ذلك لمعارضة الكثير من

علماء المدينة لم يوافقوه على ذلك باستدلالهم أن لبعض الأساطين فضائل كاستجابة الدعاء عندها وأن الصحابة كانوا يصلون عندها وأرسلت الأدلة إلى السلطان. فلما أشرف عليها أصدر مرسوما بالبناء على الرسم القديم لأن في تغيير الآثار الشريفة وتبديل المآثر المنفية من غير ضرورة.[١٩]

الاسطوانة المخلقة

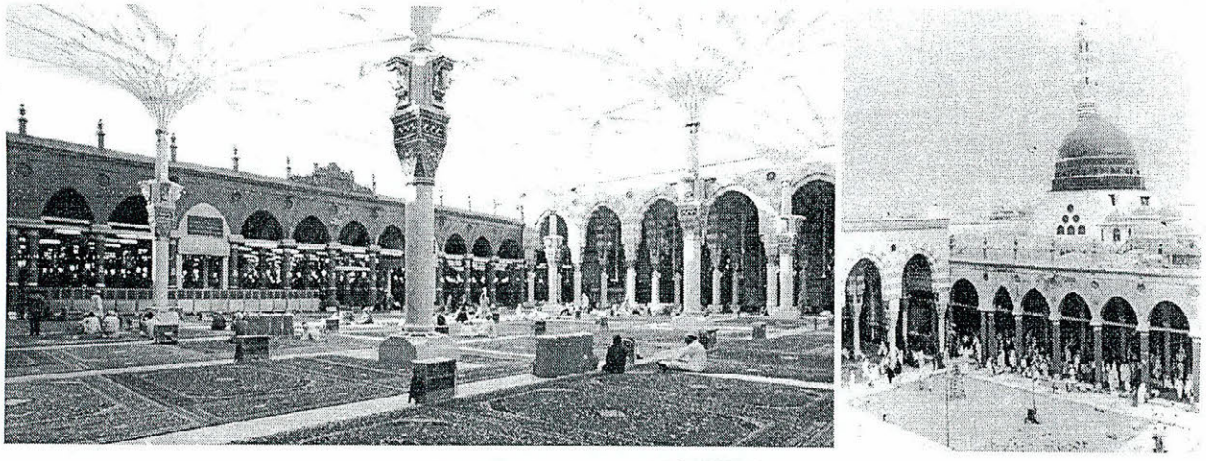
تمتاز هذه الأسطوانة عن غيرها في الأسطوانات حيث أنها أقيمت في موضع الجذع الذي حن إلى رسول الله ﷺ وقد كان يستند إليه ﷺ – قبل بناء المنبر ويصلى إليه الفريضة. وهي الأسطوانة اللاصقة بالمحراب النبوي من جهة القبلة مكتوب عليها هذه اسطوانة المخلقة وسميت بالمخلقة لأنها كانت تطيب بطيب الخلوق. وقد أحدث عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه تحويف إلى يمين الأسطوانة يطلق عليه محراب النبي ﷺ .

الصفة

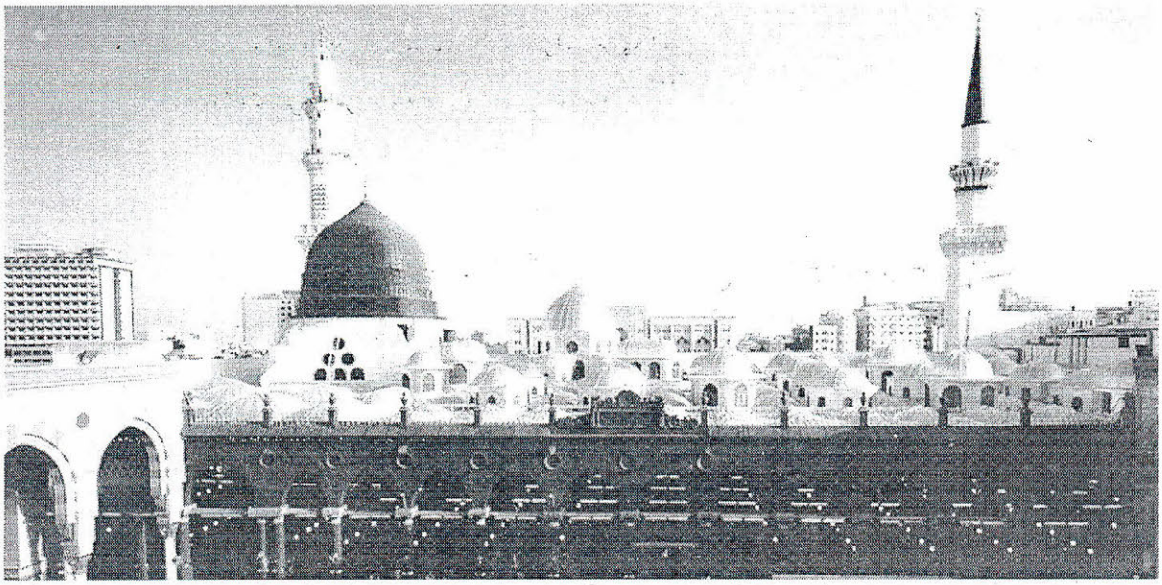
هو مكان مرتفع اتخذه صحابة رسول الله ﷺ شمال الروضة الشريفة للعبادة وتلقي أخبار الوحي وتبليغه لمختلف أحياء المدينة المنورة لأن المصطفى ﷺ كان يخبر من في المسجد حال نزول الوحي عليه وقد امتدح الله أهل الصفة بقوله "ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحيوة الدنيا"[الكهف، آية ٢٨].

الحصوة

صحن المسجد و الصحن لغة هو ساحة الدار، وللمسجد رحبته وهو القسم غير المسقوف فيه ويعتبر امتدادا لمكان الصلاة ويستوعب المصلين الذين ضاق بهم مكان الصلاة والحصوة قديمة عهد بالمسجد النبوي إذ هي المنطقة الفاصلة بين الظلتين (الظلة الشمالية والظلة الجنوبية) إذ اهتم صلاة الله وسلامه عليه وأصحابه بالمسجد وعزل المصلين عن الجلبة الخارجية التي قد تصرف الناس عن التفرغ للعبادة والإصغاء إلى ما يتلى من كتاب الله أو الخطب فلم يكن في المسجد النبوي أو أي من المساجد الأولى في الإسلام نوافذ أو شرفات (شكل ١٩-٢٠).



شكل ١٩: الحصوة.



شكل ٢٠: الحصوة (صحن المسجد) و امامها الظلة الجنوبية.

بقيع الغرقد

هو مقبرة أهل المدينة دفن به أكثر من عشرة آلاف صحابي. وقد ورد في البقيع أحاديث وآثار كثيرة منها ما ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ "إن جبريل أتاني وقال أن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع مستغفر لهم ..." [٢٠، ج١١، حديث ٩٧٦]

العناصر الملحقة بالمسجد النبوي

المحراب المجوف

يعتبر من أهم عناصر المسجد وهو الحنية المجوفة في جدار المسجد جهة القبلة ، والقبلة هي الاتجاه نحو الكعبة وليس ضروريا أن يكون المحراب حنية وإنما يكفي تعيين موضعه في جدار صدر المسجد وفي بعض المساجد الأولى وضعت علامة تشير إلى المكان الذي يقف فيه الإمام والراجح أن المسجد في عهد الرسول ﷺ لم يكن به محراب.

المقصورة

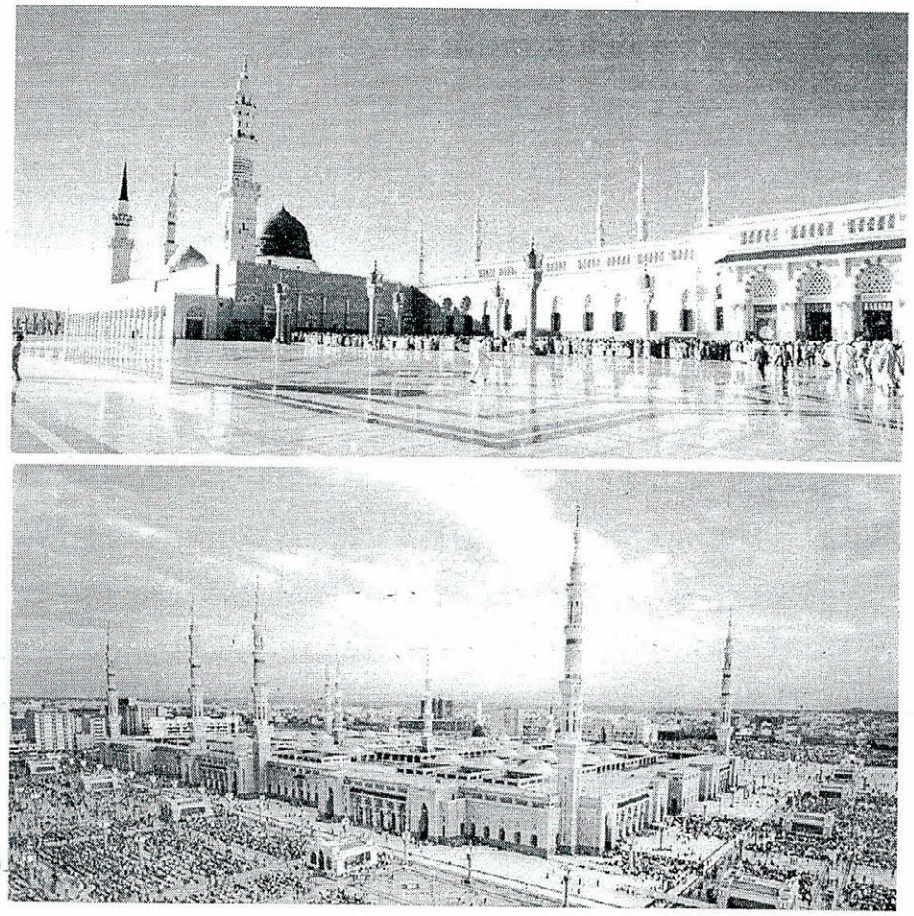
هي حجرة تبنى في صدر المسجد على يمين القبلة أو يسارها وهدفها حماية إمام المسلمين من الأخطار و لم تكن معروفة في أوائل عهد المسلمين ويرى بعض المؤرخين أن أول من اتخذ المقصورة لصلاته هو الخليفة عثمان بن عفان ويرى بعضهم أن المقاصير عرفت أيام معاوية بن أبي سفيان ولا تحتوى الكثير من المساجد على هذه المقصورة. [١٠]

المكبرية

هي السدة أو المسمعة وهي السقيفة التي تبنى في حائط المسجد قبالة المحراب والمنبر وتكون عادة من الخشب وترفع فوق ارض المسجد على أعمدة عالية ثابتة و لم يعرف أن أحدا بنى مكبرية نقالة على نحو ما عهد عن بعض المنابر والمحاريب والغرض منها على هذا النحو هو تمكين المؤذن من متابعة الركوع والسجود والقيام فيرفع صوته بالتكبير والتحميد بعد الإمام كي يسمع المأمومين البعيدين.

المئذنة أو المنارة

هي البناء المرتفع الذي يرتقيه المؤذن ليبلغ ويرفع الأذان للصلوات الخمس. و لم تكن المئذنة المرتفعة معروفة في عهد النبي ﷺ ولا في زمن الخلفاء الراشدين إلا أن أساسها وهو الآذان من مكان مرتفع كان معمولا به أيام الرسول ﷺ وترجح روايات المؤرخين أن الخليفة معاوية رضى الله عنه هو أول من أشار ببناء المآذن.[١٠١] وأصبحت المئذنة جزءا متمما للمسجد ، ارتقت عمارتها بشكل سريع وأصبحت لها أشكال هندسية متنوعة مع تجميلها وتزيينها بالزخارف والنقوش والتفنن في بنائها وأصبحت في الوقت الحاضر أداة لحمل مكبرات الصوت بالإضافة إلى أنها عنصر دلالة للمسجد (شكل٢١).



شكل ٢١: المآذن في المسجد النبوي الشريف

الميضأة

وهي المكان المخصص للوضوء حيث أن الصلاة لا تجوز من غير وضوء ولهذا كانت الميضأة ووجود مرافق صحية ضرورة في كل مسجد.

وقد كانت في المساجد القديمة غالبا في أحد جوانب الصحن بعيدا عن مكان الصلاة وتأتي على شكل حوض كبير يتحلق الناس حوله ويتوضئون بمياهه المنقولة من الآبار أو المتدفقة من الزلاقات، وهذا طبعا قبل أن تتطور أمور التغذية بالمياه والصرف الصحي لها وابتكار الأدوات الصحية التي توفر شروط الطهارة البدنية من الأوساخ والقاذورات.

فضائل المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف وآداب دخولهما

أول بيت وضع للناس على الأرض، اختصه بما لم يختص غيره من البقع الصلاة فيه تعادل مائة ألف صلاة. والسنة أن يدخل مع باب السلام الذي يدخل معه الرسول ﷺ وأن يقول (بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم افتح لي أبواب رحمتك) وإذا رأي البيت "الكعبة" أن يقول (اللهم زد هذا البيت تعظيما وتشريفا وأمنا ومهابة ومخافة) ثم يستقبل الحجر الأسود ويبدأ الطواف. المسجد الحرام ما يحيط بالبيت الحرام (الكعبة)، المسجد النبوي الشريف هو المسجد الثاني في الإسلام في الفضل وفي المنزلة عند الله - عز وجل- وفي الأجر للمصلين فيه والقاصدين له، فقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى.

وفي فضل الصلاة فيه قال ﷺ (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام.[٢١]

ومن آداب دخول المسجد الحرام أن يبدأ الحاج والمعتمر والزائر بالطواف وهي تحية المسجد ثم يصلي ركعتي الطواف. أما آداب زيارة المسجد النبوي الشريف أن يبدأ الزائر بالبحث في الروضة الشريفة عن محل يمكنه الصلاة فيه ركعتين تحية المسجد فإذا لم يجد بها محلا فيمكنه الصلاة في أي مكان من المسجد. فإذا انتهى من تحية المسجد فليتوجه إلى الحجرة الشريفة ويقف مواجها لقبره عليه أفضل الصلاة والسلام مستدبرا القبلة ويسلم على رسول الله ﷺ فيقول: السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا حبيب الله السلام عليك يا خير خلق الله ، أو يقول مثل ذلك القول ثم يتحرك إلى اليمين قليلا بقدر خطوة ويسلم على أبي بكر الصديق ثم يتحرك خطوة أخرى إلى اليمين قليلا بقدر خطوة ويسلم على الفاروق رضى الله عنهما وان سلم على رسول الله ﷺ وصاحبيه رضى الله عنهما من أي مكان جاز، وبعد السلام يتوجه إلى القبلة فيجعل ظهره إلى الحجرة الشريفة أو يترك المكان لغيره من الزوار ويتجه إلى القبلة في أي مكان من المسجد ويدعو الله بما شاء من أمور الدنيا والآخرة. وعند وصوله إليها يدخل مقدما رجله اليمنى ويدعو بما ورد عند دخول بيوت الله :(أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه

القديم، من الشيطان الرجيم، بسم الله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك).

المسجد النبوي الشريف: المبادئ الأساسية لتصميم المساجد

تنحصر المبادئ الأساسية التي قام على أساسها المسجد النبوي بمبدأين رئيسيين:

الأول: إقامة الصلاة والتفقه في الدين.

الثاني: اجتماع المسلمين والتأليف بين قلوبهم، وكان أمرا مهما لتدعيم الناحية السياسية فكانت الصلاة في المسجد جماعة يجتمع لها المسلمون خمس مرات في كل يوم وليلة يلتقون في بداية يومهم فيصلون مجتمعين على أمام واحد متجهين إلى قبلة واحدة يضمهم مكان واحد ثم ينصرفون كل إلى عمله فإذا حان موعد عودتهم إلى بيوتهم للغذاء والقيلولة كان عليهم قبل أن يذهبوا إلى بيوتهم أن يلتقوا في المسجد فيصلون ويرى بعضهم بعضا فإذا خرجوا من بيوتهم لمزاولة أعمالهم بدءوا بالمسجد يجتمعون فيه لصلاة العصر فإذا حان وقت النوم جعلوا آخر عهدهم لقاء يضم صفوفهم ويجمعهم على الحق والخير وذلك بصلاة العشاء الآخرة. كانت الصلاة في المسجد من أهم وسائل توحيد الأمة وجمع الشمل وتأليف القلوب وأي شيء اقدر على ذلك من لقاءات خيرة تجتمع فيها القلوب على الحب حيث تلتقي في ميدان المودة والصفاء في المسجد الذي أسس على التقوى.

ولم يكن عموم المسلمون يجتمعون في المسجد أوقات الصلاة فحسب بل توسع الرسول ﷺ في رسالة المسجد فجعله دارا للندوة يجتمع المسلمون فيه كلما حز بهم أمر أو كلما أراد شيئا هاما يتعلق بمصلحة المسلمين فكان ينادي في الناس (الصلاة جامعة) فيجتمع الناس في المسجد ويتشاورون فيما يهمهم وبهذا التوسع في مهمة المسجد أصبح المسجد مقرا لقيادة الجيش تعقد فيه الألوية وتصدر منه الأوامر للقواد وكان دارا للقضاء وناديا للشورى وكان نزلا للوفود والرسل الذين ترسلهم دولهم للقاء الرسول ﷺ .

وهكذا كان المسجد من أهم عوامل توحيد صفوف الأمة وجمع كلمة المسلمين وإزالة ما بينهم من العداوة القديمة والحقد المتوارث حتى أصبحوا يدا واحدة على ما عاداهم .

رسالة المسجد في الإسلام

اهتم الإسلام بالمساجد لأنها المحاضن التي تترعرع فيها مبادئه وتزدهر من جانب ولأنها من جانب آخر هي التي صنعت الأبطال وأنجبت العظماء ومن اجل هذا حث الإسلام على عمارتها فقد روى البخارى ومسلم عن عثمان – رضى الله عنه – قال: قال رسول ﷺ من بنى مسجدا بنى الله له بيتا في الجنة. فعن كعب بن مالك قال: (كان النبي ﷺ لا يقدم من سفر إلا نهارا في الضحى فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس فيه

---

(١) مشكاة المصابيح الجزء الأول ص ٢٢١ .

لم يهتم الإسلام ببناء المساجد لتكون محلا لإقامة الصلاة فقط فالأرض كلها مسجد للمسلمين و لم تبن لتكون محلا للرهبنة والتبتل فلا رهبانية في الإسلام و لم تنشأ لتكون أماكن للعبادة وحلقات العلم فقط فالبيوت أماكن للعبادة و الدراسة أمكنة لحلقات العلم ولكن المساجد تبنى لكل هذا ولأكثر منه.

فالمساجد بيوت الله في الأرض والجالسون فيها ضيوفه ومن واجب الضيف أن يتأدب في بيت مضيفه فإذا كان المسلم معلق القلب بالمساجد فهو دائما يستشعر حق الله عليه فيظل ملتزما للأدب من جانبه - سبحانه - وهذا هو أرقى أنواع المراقبة التي تكتسب من التزامها درجة رفيعة من التربية والتهذيب وتلك هي الوظيفة الأولى للمسجد.

وبالإضافة إلى ذلك فالمسجد هو المدرسة التي تكتسب فيها النفوس تربية روحية "الصلاة صلة بين العبد وربه" وعقلية بتأملها في مخلوقاته، وجسيمة في المحافظة على الصلوات وتأدية حركاتها تامة متقنة وتلك هي التربية الحقيقية لأنها لم تهمل شيئا من جوانب الإنسان المختلفة.

والمسجد مأوى الغريب ونزل الضيف ومجلس الضعفاء يجد فيه كل صنف من هؤلاء حاجته وطمأنينة نفسه قد يقدم الإنسان على قرية ليس فيها ما يأوي إليه الغريب من الفنادق أو نحوها فيجد المسجد وقد يقدم الضيف إلى محل لا مطاعم فيه فيترل في المسجد وعلى المسلمين ضيافته لمدة ثلاثة أيام.

المسجد مقر لقيادة الجيش حيث كانت تجتمع فيه الجيوش وتعقد الألوية وتسند القيادات وتصدر الأوامر ثم تنطلق الجيوش على اسم الله تعالى غازية فاتحة.

وفي المسجد يجد المسلم راحة وطمأنينة فيجمع شتات قلبه المتناثر وتجد روحه التائهة وتسكن نفسه الشاردة إلى جوار الله يفرغ قلبه من هموم الدنيا ومشاغلها وتشحن روحه شحنة ربانية تغسل أدران نفسه وتمحو خطايا جوارحه فيقبل على الله بقلب سليم. وكان ﷺ إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة.

وكان المسجد دارا للقضاء تعرض فيه الدعاوى وينظر فيها القضاة ويقلبون الأمر على وجوهه المختلفة وينصت الخصمان خاشعين لأمر الله ثم يصدر الحكم فتذعن له القلوب بالرضا والتسليم.

وكان المسجد دارا للحكم يجلس فيه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده فيستقبلون الوفود ويستمعون منهم ويعرضون عليهم الإسلام ويناقشونهم فيما عندهم من الآراء .

وكان المسجد دار لمجلس الشورى تعرض فيه شئون الأمة وما يعن لها من المشكلات وتناقش على ضوء الكتاب والسنة الأمور التي لم يرد فيها نص ثم يجمع فيها المسلمون على رأى ويكون ذلك حكما ماضيا في الناس.

تلك هي رسالة المسجد في عمومها وشمولها لا تدع شيئا من شئون الدين إلا أحصته ولا أمرا من أمور الدنيا إلا وضحته وقررته.

فالصلاة هي الخشوع لله تعالى وإظهار الانقياد له وصلة القلب به وتعلق النفس بجلاله ويمكن أن تظل هذه العبادة (تسرح) فيها العقول وتميم فيها القلوب ولكنها حينئذ لا تكون الصلاة الإسلامية إلا إذا طبقت عمليا بالإتيان بها في أوقاتها وبهيئتها المعروفة التي قررها الإسلام.

ومن آداب المسجد أيضا الطهارة والنظافة، وعدم قطع الصفوف لاستمرارية رؤية الأمام أو المأموم الذي يرى الأمام سواء للرجال أو النساء.

أول نزع ملكية في الإسلام

المسجد النبوي هو المسجد الثاني الذي بناه رسول الله ﷺ في السنة الأولى من الهجرة والأول هو مسجد قباء الذي وضع حجر أساسه ﷺ وقباء تلك الواحة التي نزل فيها الرسول بعد الهجرة وأقام فيها الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ثم توجه إلى المدينة ضحى الجمعة والصحابة رضوان الله عليهم كل يريد أن يأخذ بزمام ناقته ليكون ضيفه ونزيله وهو ﷺ يقول: (خلو سبيلها فإنها مأمورة) والناقة تتلفت يمينا وشمالا وتدير رأسها خلفها كأنها تبحث عن شيء فسارت حتى استناخت في موضع المسجد فلم يترل عن ظهرها فقامت ومشيت قليلا وهو ﷺ لا يهيجها ثم التفتت فكرت راجعة إلى مكانها الأول وبركت به ووضعت جرانها على الأرض فنزل عنها فقال ﷺ (هنا المنزل إن شاء الله تعالى).

تحدد موقع المسجد في المكان الذي بركت ناقة رسول الله ﷺ عنده وهو يؤمئذ يصلي فيه رجال من المسلمين وكان مربدا لسهيل وسهل غلامين يتيمين من الأنصار وكانا في حجر أسعد بن زرارة فقال رسول الله ﷺ : يا بني النجار ثامنوني بحائطكم قالوا : لا نطلب ثمنه إلا إلى الله فأبى ذلك ﷺ وابتاعها بعشرة دنانير أداها من مال أبي بكر – رضي الله عنه – والتثمين غالبا ما يكون أعلى سعرا من عرض البيع.[٩١] واخذ ﷺ يستعد للبناء فأمر بتسوية الأرض فنبش ما بها من قبور وقطع النخيل وعجن الطين، وضرب اللبن ، وأحضر جذوع النخيل ليتخذ منها عمدا وأمر بالجريد ليسقف به.

تجهيز الموقع

قال أنس : وكان أي المسجد – في مواضع نخل وخرب ومقابر مشركين ، فأمر بالقبور فنبشت واخرج منها العظام وبالخرب فسويت وبالنخيل فقطعت . وعن أم سلمة – رضى الله عنها – قالت : بنى رسول الله ﷺ مسجده فضرب اللبن وعجن الطين وقرب ما يحتاجون إليه. [٩١]

تقديم أهل الخبرة

قدم رجل من أهل اليمامة عند الشروع في بناء المسجد يقال له طلق من بنى حنيفة فعنه – رضى الله عنه – قال : قدمت على النبي ﷺ وهو يبنى مسجده والمسلمون يعملون معه فيه وكنت صاحب علاج الطين فأخذت المسحاة

وخلطت بها الطين فقال لي - يعني رسول الله ﷺ - رحم الله امرءا أحسن صنعته ، قال لي الزم أنت هذا الشغل فإني أراك تحسنه وفي لفظ أن هذا الحنفي لصاحب طين ، وفي لفظ ، قربوا اليماني من الطين فانه أحسنكم له مسكا وأشدكم منكبا.[١٩]

كانت هناك عناصر أخرى استعملت في البناء : هي الحجارة بأنواعها المختلفة البازلتية وهي كثيرة في أطراف المدينة والرملية والجراتينية وقليل من الحجر الجيري ثم جذوع النخيل التي انتزعت من المربد عند تسويته.

عندما بدا البناء جعل الأساس بعمق قريب من ثلاثة أذرع كما أسلفنا . أقيمت الجدران فوق الأساس من اللبن بارتفاع سبعة أذرع وكان عرض الجدار لبنتين. جعل للمسجد ثلاثة أبواب - وكانت عضادات الأبواب من الحجارة - وهذا أيضا فهم معماري آخر لكثرة الاحتكاك بالأبواب دخولا وخروجا.

أناشيد البناء

عمل رسول ﷺ مع الصحابة في بناء المسجد بنفسه الكريمة كما في الصحيح أنه طفق ينقل معهم اللبن في بناية وهو يقول حين ينقل اللبن:[١٩]

هذه الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر

يقصد أحمال التمر التي اشتهرت بها خيبر

ويقول ﷺ :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

قال ابن شهاب الزهري لم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذه الأبيات هذا لفظ البخاري وقد تفرد بروايته دون مسلم وله شواهد من وجوه أخرى.

الشكل النهائي للمسجد

ولأن أول عمل قام به الرسول ﷺ عند هجرته إلى المدينة هو بناء مسجد للمسلمين وأصبح المسجد في صورته النموذجية الفريدة لجميع المساجد الإسلامية بعد ذلك، والتي تتمثل في صحن مكشوف تحيط به أروقة من كل جانب أوسعها رواق القبلة. ويعد هذا الطراز الإسلامي الجديد مختلفا كل الاختلاف عن دور العبادة المسيحية أو اليهوديه التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، وحدد وبأسلوب واضح ومميز النمط المعماري الجديد لمعظم المساجد التي أنشئت في مدن العالم الإسلامي من الشرق إلى الغرب.

عندما تم البناء الأول كان المسجد فضاء مسورا ذا أبواب ثلاثة دون سقف وكان ذلك كافيا لمهمته التي بنى لها وهي التجمع للصلوات الجامعة فضلا عن الوظائف والأغراض التي عددنا في الحديث عن وظيفة المسجد الجامع . لكن جدت عوامل، شاء الله أن يكون لها تأثير في تعديل المظهر النهائي للمسجد.

ذكر السمهودي[١٩] أن البنيان كان جدرانا أربعة بلا سقف فلما شكا الناس شدة الحر ثم المطر : أقام رسول الله ﷺ لهم ظلة سواريها من جذوع النخيل فوقها عوارض ثم جعل على العوارض الجريد والسعف والخصف والإذخر والطين المطرور – عجينة مبسوطة – وبهذا شكلت هذه المواد سقفا متماسكا أظلهم من الحر وبقية المسجد مساحة مكشوفة.

فلما حولت القبلة إلى الكعبة ، أقيمت ظلة ثانية مماثلة للظلة الأولى وبنفس موادها وأبعادها ومواصفتها في المكان الذي كان مؤخر المسجد ، فأصبح بهذا التحويل مقدما وصار بين الظلتين رحبة مكشوفة للسماء وصارت الظلة الشمالية الأولى مؤخر المسجد وفي جزء سكن أهل الصفة وهم فقراء الصحابة رضوان الله عليهم.

في السنة السابعة للهجرة ضاق المسجد بالناس ويذكر السمهودي انه لما كثر الصحابة ، ثم كثروا ، فقالوا يا رسول الله لو زيد فيه ففعل واشترى بقعة من أنصاري زيدت في المسجد . فزاد ﷺ من شرقه بمقدار عشرة أذرع ومن غربية بمقدار عشرين ذراعا وبذلك زادت أساطينه أو سواريه و عمده من جهة الشرق سارية ومن جهة الغرب سارتين فصارت صفوف الأعمدة كل صف تسع سوار.

وهكذا وفي حياة رسول الله ﷺ أخذ المسجد النبوي شكله وتخطيطه الذي اقتضته الوظيفة الشرعية والاجتماعية وحاجة الناس وراحتهم في استخدام المكان.

لم يعمر البناء الذي أسسه رسول الله ﷺ طويلا وذلك لأن المواد التي استعملت لم تكن تحتمل العوادي طويلا، ولقد أعيد تعمير المسجد ثلاث مرات قبل انتهاء القرن الأول الهجري إلا أن الإعادات قد التزمت تخطيط المصطفى ﷺ : التزمت بالظلتين أو السقفين بينهما الرحبة وكانت الزيادة في السواري من الجانبين.

ولما نخرت جذوع النخيل في عهد أبي بكر رضى الله عنه قام بتجديدها بجذوع النخيل والجريد وغيرها من المواد وأعادها كما كانت.[١٠]

ضاق المسجد بعد ذلك مرة أخرى بالمسلمين فجدده عمر بن الخطاب رضى الله عنه في سنة سبعة عشر هجرية على بنائه على عهد رسول الله ﷺ .

وسقفه كذلك وقال للبناء : لا تصفر ولا تحمر حتى لا تفتن الناس فقدم جدار القبلة عشرة أذرع أو نحو ذلك ، وزاد من جهة الشام عشرين ذراعا وكانت الزيادة من جهة الغرب قدر بيت العباس بن عبد المطلب وأمتد بيت الصلاة غربا قدر ثلاث اسطوانات – ثلاث سوار – أي ما يقرب من ثلاثين ذراعا وجعل للمسجد ٦ أبواب.

وفي سنة ٢٩ للهجرة شكا الناس إلى عثمان رضى الله عنه ضيق المسجد يوم الجمعة فزاد فيه زيادة كبيرة وأعاد بناءه بالحجارة المنقوشة – المنحوتة– والقصة – الجص – وجعل عمده من حجارة منقوشة منحوتة وسقفه بالساج – خشب معمر – وكان عثمان يشرف بنفسه على العمال وزاد من جهة القبلة إلى ما هو عليه الآن وقدر هذه الزيادة عشرة أذرع و لم يزد فيه من جهة الشرق ولكن زاد من جهة الغرب والشمال وجعل للمسجد ٦ أبواب على ما كان على عهد عمر ويذكر الرواة أن المسئول عن مباشرة العمل كان زيد بن ثابت رضى الله عنه

فقدر أساطينه على قدر جذوع النخل على عهد رسول الله ﷺ أي صار كل عمود حجري في نفس مكان جذوع النخل إلا فيما زاد من جهة الشمال والغرب فقدرت أبعادها كأبعاد ما كان بين الجذوع وما زال هذا متبع عند كل من عمر أو جدد في هذا المسجد أو زاد فيه منذ إنشائه حتى اليوم وما زالت سواري المسجد وعمده معروفه بأسمائها على عهد رسول الله ﷺ وجعل زيد بن ثابت في الجدارين الشرقي والغربي طيقان - أي فتحات نوافذ مما يلي السقف. وهذا يساعد على التهوية بعد اتساع مساحات السقائف.[١٠١] ولم تقم الأساطين أقواس - عقود - بل امتدت فوقها على عوارض خشبية. وقد بقى المسجد على حاله منذ عمارة عثمان رضى الله عنه ما يقرب من ستين سنة حيث بعث الوليد بن عبد الملك إلى عامله على المدينة ومكة عمر بن عبد العزيز أمره بإعادة بناء المسجد وتوسعته وكان القائم على شئون العمارة صالح بن كيسان معلم عمر ومؤدبه فزاد من شرقية وأدخلت بقية حجرات النبي ﷺ وزاد من غربية وشمالية ومما يذكر لعمر بن عبد العزيز عندما صار إلى جدار القبلة أنه دعى مشيخة أهل المدينة من قريش والأنصار والعرب والموالى فقال لهم : "تعالوا احضروا بنيان قبلتكم لا تقولوا : غير عمر قبلتنا" ، فجعل لا يترع حجرا إلا وضع مكانه حجرا وكانت الأعمدة من حجارة حشوها عمد الحديد والرصاص وزاد صالح بن كيسان عن التخطيط الأول : أن وصل بين مقدم المسجد ومؤخره بسقائف على جانبي الرحبة المكشوفة وجعل للمسجد أربع مآذن وجعل في جدار القبلة أول محراب.

بساطة عمارة الحرم النبوي الشريف

ربما يظن بعض المراجعين لمراحل عمارة المسجد أن العمارة التي قام بها رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم كانت عمارة بدائية بعد ذكر عناصرها من لبن وغيره لكن نجد أن هناك عبارات اصطلاحية ذكرت في وصف طرائق البناء مما يدل على وجود أساليب حرفيه تدل رغم بساطة المواد على فهم معماري، عندما يصف فابن فضل الله العمري في كتابة "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" جدار القبلة بأنه كان من حجارة منضودة فإن ذلك يعنى أن الجدار كان مستقيم الهيئة من حجارة رتبت في نظام ونسق حتى تتلامس حواف الحجارة فيتم تماسك الجدار.[١٠٢]

والسمهودي عندما ذكر أسلوب بناء اللبن وهو العنصر الغالب في بناء الجدران : قال : بنى الجدار بالسميط لبنة على لبنة ثم بالسعيدة لبنة ونصف أخرى ومن ذلك نفهم طرائق وضع اللبنات وتتابعها أو تقاطعها وذلك يكون في الجدار المفرد اللبنات والمزدوج وهكذا نرى اللبنات تمثل في الجدران دور الخلايا الطولية والعرضية في عضلات الإنسان وبذلك التوزيع يتم تماسك اللبنات وتعاضدها بعد جفاف الملاط وعندما أعيد بناء المسجد في السنة السابعة للهجرة وتوسعته : يذكر السمهودي أنه بنى بالذكر والأنثى وهو ما يسميه البناءون (أدية وشناوي) ومن ذلك نفهم أن التخطيط ثم البناء لم يكونا بدائيين فهو رغم بساطة المواد : بناء فيه حرفية وصنعه عمرت سبع سنوات في المرة الأولى ثم إلى سنة ١٧هـ في عهد عمر باستثناء استبدال الجذوع على عهد أبي بكر رضى الله عنهما وهكذا كانت الحاجة - الوظيفة - والمواد المتاحة وطبيعة المكان هي التي أملت التخطيط وعناصره التي

ظلت عبر السنين ما تغير منها إلا مواد البناء والعمارة وما اقتضته زيادة الناس من توسعات حافظت بعد ذلك على تخطيط رسول الله ﷺ حتى مواقع الأساطين ظلت هي إلى اليوم بأسمائها على عهده ﷺ .

بالغ الصناع في إبداعهم كلما عمروا فدخلت في عناصر تعميرهم : الرخام والفسيفساء والتذهيب وارتفعت السقوف عالية فوق الأكتاف الحجرية والعمد الرخامية وتجليد الجدران بالرخام. ثم تفرعت الإضافات المعمارية الأخرى للمسجد - مع الإبقاء على الشكل العام للمسجد - فأدخلت المآذن العالية في عام ٨٨هـ في عهد الوليد بن عبد الملك، وبرزت فكرة بناء المئذنة من وظيفتها إذ كان المؤذن في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو للصلاة من أعلى سطح مجاور للمسجد ويرقى أقتابا. ثم ظهر المحراب المجوف، ثم الزخرفة الخطية، والنقوش.
بما أن تصميم المسجد النبوي الشريف يتسم بالسهولة في تكوين عناصره المعمارية الرئيسية وترتيبها لذا تكمن الصعوبة البالغة لضرورة توظيف هذه العناصر بما يتوافق مع الطبيعة البشرية، ومدى ملاءمتها للاعتبارات الإنسانية في أداء الشعائر الدينية دون تشويش أو إزعاج.

التطورات التي أدخلت على عمارة الحرمين الشريفين

تكون الشكل العام للأروقة من عمد وأساطين تحمل السقوف ثم تطور نظام الحمل بعد قرون عندما حملت الأعمدة عقودا حملت الأسقف مما زاد في ارتفاع السقف دون تغيير في مواضع الأعمدة الأولى وتمت الاستفادة بما استحدث من أساليب العمارة وجماليات الفنون.

ولقد استعمل نظام القباب الصغيرة بدلا من السقوف المسطحة في العمارة المجيدية في المسجد النبوي الشريف والعمارة العثمانية لعمارة المسجد الحرام.
أدخل الكثير من التطويرات على تصاميم المحاريب وأماكنها، الساحات المحيطة بالحرم النبوي، (عدد المآذن وارتفاعها، والأدوار العلوية والسفلية، إدخال التقنيات الهندسية الحديثة للتبريد والتكييف والصوت والإضاءة والحركة، التوسع الكبير الهائل في المساحة وفي سعة الاستيعاب.

الدروس المستفادة من عمارة وتوسعات الحرمين الشريفين

أ - التراتيب الإدارية والسلوكية

- **اقتداء المساجد في صلاتهم بمؤذن المسجد الجامع**

كانت مساجد المدينة تسعة سوى مسجد رسول الله ﷺ كلهم يصلون بأذان بلال رضي الله عنه.[٢٣]

وذكر الكتاني في التراتيب الإدارية أن أهل السير ذكروا أن بلالا كان يؤذن على اسطوان في قبلة المسجد يرقى إليها بأقتاب فيها وكانت خارجة من المسجد ، لم تكن فيه. إنه لم يكن منار في زمانه ﷺ وإنما هو من سنة الصحابة.[٢٤]

- **فرش المسجد**

الخمرة كالحصير الصغير من سعف النخل يضفر بالسيور ونحوها بقدر الوجه والكفين مصلي ، وفي المعالم للخطابي الخمرة "السجادة التي يسجد عليها المصلي". روى البخاري عن ميمونة عن عائشة قالت "قال لي رسول الله ﷺ ناوليني الخمرة من المسجد" وروى النسائي عن ميمونة قالت "كان رسول الله ﷺ يضع رأسه في حجر إحدانا فيتلو القرآن وهي حائض وتقوم إحدانا بخمرته إلى المسجد فتبسطها وهي حائض".

- **ترتيب الساتر للإمام**[٢٥]

ورد في الصحيحين عن ابن عمر كان رسول الله ﷺ يغدو إلى المصلى والعنزة تحمل بين يديه ويصلي إليها ، والعنزة عصا قدر نصف الرمح أو اكبر لها ساق مثل ساق الرمح. وفي كتاب البيان والتبيين أنه كان له ﷺ مخصرة وقضيب وعنزة تحمل بين يديه.

- **آداب المسجد**[٢٦، ٣٢] **دروس معنوية**

إذا كان التزام الأدب في بيوت العظماء والأمراء واجبا فالتزامه في بيت خالق العظماء ورب الأمراء أكثر وجوبا . والمسجد بيت الله وهو ملتقى المسلمين في صلواتهم وندواتهم فيما يخص شؤونهم لذا كان لابد له من قواعد تنظم شؤون المسلمين فيه ومن آداب تتناسب مع رفعة مكانته وخطورة شأنه . والآداب منها ما يتعلق بالمسجد عامة ومنها ما يتعلق بصلاة الجماعة فيه.

وقد حدثت دواعي هذه الآداب في المسجد النبوي الشريف بحيث وجه ﷺ صحابته بها وأصبحت جزء من السنن المكملة للإيمان.

هناك العديد من الآداب المتعلقة بالمسجد وهي من الثوابت المعنوية التي يجب على المسلم الالتزام بها:

١- ليس من أدب الإسلام الخروج من المسجد بعد سماع الأذان حتى نصلي المكتوبة مع الجماعة إلا لعذر . عن أبي الشعثاء قال : " كنا قعودا مع أبي هريرة رضي الله عنه في المسجد فأذن المؤذن فقام رجل من المسجد يمشي - قبل أن يصلي الفريضة مع الجماعة - فأتبعه أبو هريرة بصره حتى خرج من المسجد فقال أبو هريرة : أما هذا فقد عصى أبا القاسم ﷺ رواه مسلم.

٢- ليس من أدب الإسلام رفع الصوت في المسجد أو الخصومة فيه : عن السائب بن يزيد الصحابي رضي الله عنه قال : " كنت في المسجد فحصبني رجل (رماني بحصاة) فنظرت فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : اذهب فأتني بهذين فجئته بهما فقال : من أين أنتما فقالا : من أهل الطائف فقال : لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ترفعان أصواتكم في مسجد رسول الله ﷺ رواه البخاري.

٣- عدم رفع الصوت أثناء الخطبة والانتباه للخطيب ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب أنصت أو مه فقد لغوت ومن لغا والإمام يخطب فلا جمعة له " أخرجه الترمذي النسائي حديث صحيح.

٤- عدم رفع الصوت في قراءة القرآن لئلا يشوش القراء بعضهم على بعض أو على المصلين والذاكرين . عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : " إن المصلي يناجي ربه عز وجل فلينظر بم يناجيه ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن " رواه أحمد بسند صحيح.

٥- عدم استخدام المسجد للبيع والشراء أو للسؤال عن ضائع أو لأي عمل يخرج عن الأهداف التي وجد المسجد من أجلها فعن عمر ابن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهم " أن رسول الله ﷺ نهى عن الشراء والبيع في المسجد وأن تنشد فيه ضالة أو ينشد فيه شعر - لا يقره الإسلام - " رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن وقال الشيخ ابن تيمية : أصل السؤال محرم في المسجد إلا لضرورة فإن سأل و لم يؤذ أحدا كتخطيه الرقاب و لم يكذب و لم يجهر جهرا يضر الناس كأن يسأل أثناء الخطبة أو الصلاة فجائز.

٦- المحافظة على نظافة المسجد : وذلك بعدم رمي الأوساخ أو البصاق فيه لحديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " البصاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها " متفق عليه. هذا إذا كانت أرض المسجد من تراب أو رمل، أما إذا كانت أرضه من بلاط فكفارتها مسحها بمنديل من ورق أو غيره ورميه خارج المسجد بعد المسح فيه.

٧- عدم أكل البصل والثوم قبيل الذهاب إلى المسجد لكي لا يتأذى المصلون برائحته عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : " من أكل من هذه الشجرة - يعني الثوم - فلا يقربن مسجدنا" متفق عليه وعن جابر رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ " من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا - أو فليعتزل مسجدنا " متفق عليه.

٨ - من أدب المسجد أن يكون المسلم نظيف الجسم والثياب حين ذهابه إلى المسجد : قال تعالى : ﴿يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ [الأعراف :٣١] . وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : "إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل " متفق عليه . وفي ذلك دلالة على وجوب غسل الجمعة وعن سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ " لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ، ويدهنه (عطره) أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى" رواه البخاري.

٩- من السنة أن يصلي الداخل إلى المسجد ركعتين سنة تحية المسجد عن قتادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ " إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين " متفق عليه ، وإن اضطر للجمع بين تحية المسجد وسنة الوقت الذي حضر لصلاته فلا بأس - والله اعلم.

١٠- من آداب المسجد أن يدعو الذاهب إلى المسجد بالدعاء المأثور التالي : عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خرج إلى المسجد وهو يقول : " اللهم اجعل لي في قلبي نورا وفي بصري نورا وفي سمعي نورا

وعن يميني نورا وعن يساري نورا وفوقي نورا وتحتي نورا وأمامي نورا وخلفي نورا واجعل لي نورا " رواه البخلوي.

ويستحب لداخل المسجد أن يقدم رجله اليمنى وإذا خرج أن يقدم رجله اليسرى لحديث أنس قال : إن السنة إذا دخلت المسجد أن تبدأ برجلك اليمنى " رواه الحاكم حديث صحيح وقال البخاري : كان عمر يفعله .

ومن السنة أن يقول حين دخول المسجد " بسم الله ، اللهم صل على محمد " كما في رواية أنس بن مالك وفي رواية أبي أسيد رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ " إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على رسول الله ﷺ ثم ليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك فإذا خرج فليقل : اللهم إني أسألك من فضلك " رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

١١ — من السنة أن يكون دخول المسلم لمقر سكناه بعد سفر هو المسجد والصلاة به قبل أن يذهب إلى بيته.

• آداب صلاة الجماعة في المسجد

الإسلام دين اجتماعي يحرص على توثيق أواصر المحبة والتعاون بين أفراد مجتمعه ، وينهى عن كل ما يضعف هذه العلاقات فالعبادات الجماعية في الإسلام تهدف إلى ترابط وتعاون وتكافل أفراد المجتمع الإسلامي ، كما تهدف صلاة الجماعة إلى تعارف المصلين في مسجد الحي أو مسجد السوق ليتفقدوا الغائب ويساعدوا المحتاج ويزوروا المريض . ونظرا لأثر صلاة الجماعة الفعال في المجتمع المسلم فقد شدد علينا رسول الله ﷺ بضرورة الحفاظ عليها ، فقال في حديث رواه أبو هريرة رضى الله عنه : " والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلا فيؤم الناس ثن أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم " متفق عليه وذلك لعدم حضورهم صلاة الجماعة وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وسوقه خمسا وعشرين ضعفا وذلك أنه إذا توضأ فاحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحط عنه بها خطيئة فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه – ما لم يحدث – اللهم صل عليه اللهم ارحمه ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة " متفق عليه.

هناك مجموعة من الآداب التي يجب الالتزام بها وهي:

١– أن نتوقف عن أداء صلاة السنة متى أقيمت الصلاة ونلحق بالإمام لحديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة " رواه مسلم.

٢– أن يقف الإمام وسط الصف لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : وسطوا الإمام وسدوا الخلل " رواه أبو داود.

٣– أن يكون ترتيب المصلين خلف الإمام حسب الأولويات التالية : الرجال المتفقهون ثم الرجال العقلاء ثم الأحداث ثم النساء ، لحديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة يسويها

ويقول"استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ليليني منكم أولوا الأحلام والنهى - الحليم هو المتثبت من الأمر يعني المتفقه ، والنهى جمع نهية وهم الرجال العقلاء - ثم الذين يلونهم (يعني الأحداث) ثم الذين يلونهم (يعني النساء) رواه مسلم . وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها " رواه مسلم وذلك حفاظا على هدم اختلاط الرجال بالنساء خوف الفتنة - والله اعلم.

٤- أن يكمل المصلون الصف الأول ويوصلوا الصفوف عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ في المسجد فقال " ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها فقلنا : يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال : يتمون الصف الأول ويتراصون في الصف " رواه مسلم . وأن نبدأ الصف الجديد من الوسط - خلف الإمام - بعد اكتمال الصف السابق وليس من الجانبين كما يحسن بداخل للمسجد أن يوازن بين شطري الصف الأخير ويكمل الشطر الأقل عددا.

٥- أن نحافظ على استقامة الصف في صلاة الجماعة عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ " سووا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة " متفق عليه وفي رواية البخارى " فان تسوية الصفوف من إقامة الصلاة " ويحسن بالإمام أن يأمر بتسوية الصفوف وسد الخلل قبل الدخول في الصلاة فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقبل علينا بوجهه قبل أن يكبر فيقول " تراصوا واعتدلوا " رواه البخارى ومسلم.

٦- أن ننصاع إلى نصيحة من بجانبنا إذا أرشدنا إلى تسوية الصف ورصه لحديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ " أقيموا الصفوف - بتسويتها - وحاذوا بين المناكب وسدوا الخلل - الفرج - ولينوا بأيدي إخوانكم ولا تذروا فرجات للشيطان ومن وصل صفا وصله الله ومن قطع صفا قطعه الله " بضياع ثواب الجماعة - رواه داود بإسناد صحيح.

٧- عدم المرور أمام المصلي عن قرب أما إذا كان المار بعيدا عنه فلا حرج في ذلك لحديث عبد الله بن الحارث بن الصمة الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ " لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه - من الإثم- لكان أن يقف أربعين خيرا له من أن يمر بين يديه متفق عليه . مر شاب من قريش بين يدي أبي سعيد وهو يصلي فدفعه ثم عاد فدفعه ثلاث مرات فلما انصرف قال : إن الصلاة لا يقطعها شيء ولكن قال رسول الله ﷺ " ادرؤوا ما استطعتم فإنه شيطان " رواه أبو داود.

٨- ليس من أدب تخطي رقاب الناس للوصول إلى الصف الأول طمعا في ثوابه لا شك أن ثواب الصف الأول أعظم من ثواب غيره ولكن تحصيل ثوابه يكون بالحضور إلى المسجد مبكرا فيستمع الأذان ثم يأخذ مكانه في الصف الأول قبل أن يكتمل ولا يكون الثواب بإزعاج الناس وتخطي رقابهم فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لو يعلم الناس ما في النداء - الأذان - والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا " متفق عليه . ومما يوضح هذا المعنى حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة - غسل كامل البدن - ثم راح إلى المسجد فكأنما قرب بدنة (بعيرا) ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن ومن راح في الساعة الرابعة

فكأنما قرب دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر " متفق عليه (غسل الجنابة يعني كغسل الجنابة في الصفة) . عن عبد الله بن بسر أن رسول الله ﷺ بينما هو يخطب يوم الجمعة إذ رأى رجلا يتخطى رقاب الناس حتى تقدم فجلس فلما قضى النبي ﷺ صلاته عارض الرجل حتى لقيه فقال له : " ما منعك أن تصلى معنا؟ فقال : أو لم ترني ؟ فقال : رأيتك آنيت - يعني تأخرت - وآذيت - الحضور بتخطي رقابهم " أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم . وفي ذلك إشارة إلى أنه حبط عمله وأضاع ثواب الجماعة بتخطي رقاب الناس أما إذا تقدم ليسد ثغرة تركها السابقون فلا حرج في ذلك - والله اعلم.

٩- من أدب الجماعة بل من شروط صحة صلاة الجماعة أن يتابع المقتدى لإمامه في الصلاة فلا يسبقه في ركوع أو سجود أو رفع ولا يتأخر عنه بحيث يفوت أكثر من ركن لحديث رسول الله ﷺ " أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار" متفق عليه . ولحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال " إنما جعل الإمام ليؤتم به " ولحديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " يا أيها الناس إني إمامكم فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود ولا بالقيام ولا بالقعود ولا بالانصراف (يعني بالسلام) رواه أحمد ومسلم.

١٠- عدم جلوس الاحتباء أثناء خطبة الجمعة إلا للمضطر لأن هذه الجلسة تساعد على النوم ولا تمكن صاحبها من الحفاظ على وضوئه - وجلسة الاحتباء - هي جلوس المصلي وركبتاه إلى صدره - لحديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه " أن النبي ﷺ نهى عن الحبوة يوم الجمعة والإمام يخطب " رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن.

١١- دخول المسجد بسكينة ووقار إذ ليس من الأدب أن يتراكض المتأخرون عن الجماعة لإدراك الركعة مع الإمام لأن ثواب الجماعة كتب لهم منذ دخولهم المسجد كما وأن الركض في بيت الله لا يتناسب مع أدبنا مع الله تعالى . ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا" رواه الجماعة إلا الترمذي.

١٢- يستحب للإمام أن يخفف الصلاة بالمأمومين لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير (في السن) فإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء" رواه الجماعة كما يستحب له في الركعة الأولى فليلا ليدرك المتأخرون الصلاة كما يستحب له إن أحس بقدوم أحد وهو في الركوع أن يتمهل حتى يدرك القادم الركوع.

١٣- يحسن أن لا يصلى خلف الصف منفرداً فإذا كان الصف مكتملا به أن يجذب وبلطف واحدا من الصف المكتمل أمامه ليرجع ويقف بجانبه ويحسن بالمجذوب الاستجابة لطلب أخيه ففي حديث علي بن شيبان أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يصلي خلف الصف فوقف حتى انصرف الرجل فقال له : استقبل صلاتك فلا صلاة لمفرد خلف الصف " رواه احمد وابن ماجة والبيهقي وقال احمد : حديث حسن قال ابن الهمام : يحمل الحديث على نفي الكمال.

١٤- إذا اضطر الإمام لترك الصلاة لعذر قاهر يحسن به أن يستخلف أحدا ليكمل الصلاة بالمأمومين كما فعل سيدنا عمر رضي الله عنه حين طعن وهو في الصلاة فقدم عبد الرحمن بن عوف كما ورد في رواية البخاري رضي الله عنه. كما يجوز لمن دخل الصلاة مع الإمام أن يخرج منها بنية المفارقة لعذر مشروع ويتمها لوحده.

١٥- استحباب وقوف المأموم المنفرد على يمين الإمام ووقوف الاثنين فأكثر خلف الإمام لحديث جابر قال : قام رسول الله ﷺ ليصلي فجئت فقمت على يساره فأخذني بيدي فأدارني حتى أقامني عن يمينه ثم جاء جابر بن صخر فقام عن يسار رسول الله ﷺ فأخذ بأيدينا جميعا فدفعنا حتى أقامنا خلفه " رواه مسلم وأبو داود .

ب – التراتيب القضائية

- **الدور التي وسع بها عمر الحرمين**

تبدأ هذه التراتيب بأمر نزع الملكية لصالح المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف. إن توسعة عمر – رضى الله عنه – في المسجد الحرام جعلت منه يهدم المساكن التي حول المطاف بعد إعطائه الخبر لصاحب المسكن لأنه دخل على المسجد واختلفت الصورة عندما بدأ في توسعة المسجد النبوي الشريف. من الجهة الغربية استدعت أن يأخذ عمر الدور التي كانت قريبة من المسجد ويدخلها فيه ، على أنه لم يدخل كل البيوت التي اشتراها أو تبرع بها أصحابها في المسجد بل أدخل الجزء الذي اقتضته الزيادة فقط ، وترك الباقي لأصحابه ، ومن الدور التي أدخلت في المسجد دار العباس بن عبد المطلب ، ودار أبي بكر الصديق ، ودار لجعفر بن أبي طالب ، ودور أخر كانت محيطة بالمسجد.

لما زاد عمر بن الخطاب في المسجد دعا من كان له إلى جانبه منزل فقال : اختاروا مني ثلاث خصال : إما البيع فأثمن وإما الهبة فأشكر وإما الصدقة على مسجد رسول الله ﷺ فأجابه الناس.

أما الدور التي أدخلها عثمان في الحرمين الشريفين عند توسعته المطاف وبناء أول رواق للمسجد الحرام فقد عارضه نزع الملكية بعض من ملاك العقار لكنه تعامل معهم بحزم وقوة بأن زجهم بالسجن و لم يخرجهم إلا بشفاعة بعض الصحابة. عند ذلك قبلوا التعويض، أما الدور التي ادخلها عثمان بالمسجد النبوي فإن أمور الزيادة اقتضت أن يشترى عثمان رضى الله عنه أجزاء من الدور التي كانت محيطة بالمسجد ليوسعه بها ، ومن الدور التي اشتراها أو اشترى بعضها ما يأتي:

١- دار حفصة بنت عمر بن الخطاب في الجنوب.

٢- جزء من دار مروان بن الحكم التي هي جزء من دار العباس بن عبد المطلب.

٣- جزء من دار جعفر بن أبي طالب.

ففي رواية عقبة عن عبد الرحمن بن سعد عن أشياخه (أن عمر قدم جدار القبلة إلى المقصورة ، ثم قدمه عمر إلى موضعه اليوم وأدخل بقية دار العباس بن عبد المطلب مما يلي القبلة والشام والمغرب ، وأدخل بعض بيوت حفصة بنت عمر مما يلي القبلة فقام المسجد على تلك الحال حتى زاد فيه الوليد).

فأما دار حفصة فقد روى ابن زبالة عن عبد الله بن عمر بن حفص قال : سمعت أبي يقول : "لما احتيج إلى بيت حفصة قالت : فكيف بطريقي إلى المسجد ؟ فقال لها : نعطيك أوسع من بيتك ونجعل لك طريقا مثل طريقك".

وأما دار مروان بن الحكم فيقول ابن النجار : واشترى من مروان بن الحكم داره وكان بعضها لآل النجار وبعضها دار العباس لها باب إلى المسجد وأما دار جعفر بن أبي طالب فقد روى عن أبي الحسن المدائني انه قال في حديث ساقه : أن النبي ﷺ خط لجعفر بن أبي طالب دارا وهو بأرض الحبشة ، فاشترى عثمان نصفها بمائه ألف فزادها في المسجد.

وقد سبق في زيادة عمر – رضى الله عنه – أنه أخذ دار العباس كما اشترى نصف دار جعفر بن أبي طالب مما قد يحدث لبسا وخلطا على القارئ ولتحقيق ذلك أقول إننا قد أثبتنا أن عمر رضى الله عنه لم يأخذ دار العباس كلها بل أخذ الجزء الذي احتاج إليه وترك الباقية فاشتراه مروان فلما كان في زيادة عثمان اشترى الجزء الباقي منها وأدخله في المسجد.

وبالنسبة لدار جعفر فإن عمر رضى الله عنه اشترى نصفها بمائه ألف وهنا يكون عثمان رضى الله عنه قد اشترى النصف الثاني بالسعر نفسه وادخله في المسجد وبهذا يزول اللبس ويتضح الأمر.

نزع الملكية هو حق الدولة في تملك العقار الخاص خدمة للمصلحة العامة مقابل تعويض عادل [١٣٢]. وتلجأ الدولة لنزع الملكية في الوقت الحاضر لتنفيذ المشاريع ولضمان تطبيق المخططات الرئيسية للمدن.

يلجأ لنزع الملكية غالبا في الحالات التي تتضح فيها خدمته للمصلحة العامة كحق المرور أو مد شبكات التجهيزات والمرافق العامة . وقد لجئ لنزع الملكية خاصة في فترة الخمسينات من القرن الميلادي الحالي وما بعدها في حالات التجديد العمراني . ففي هذه الحالة يلجأ لنزع الملكية لتوفير حق المرور أو لتوفير المرافق والخدمات تكون المنفعة العامة مقررة بشكل واضح ، وعادة ما يكون الاعتراض في هذه الحالة حول موضوع التعويض . كما تلجأ الدولة لنزع الملكية لتوفير حق المرور للشبكات والتجهيزات الأساسية والمرافق والخدمات العامة . ففي معرض نزع الملكية للنفع العام لدينا واقعة من التاريخ الإسلامي أطرافها الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (ت٢٣ هـ/٦٤٤م) والعباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما فحين قرر الخليفة عمر توسعة المسجد النبوي الشريف ليستوعب الأعداد المتزايدة من المسلمين في المدينة المنورة "دعا من كان له إلى جانبه منزل فقال : اختاروا من بين ثلاث خصال : إما البيع فأثمن ، وإما الهبة فأشكر وإما الصدقة على مسجد رسول الله ﷺ فأجابه الناس وامتنع العباس ، فقال له عمر إما أن تبيعنيها بما شئت من بيت المال وإما أن أخطك حيث شئت من المدينة وأبنيها بما شئت من بيت المال المسلمين وإما أن تتصدق بها على المسلمين فتوسع في مسجدهم ولكن العباس رفض أيا من تلك الخيارات واتفق الطرفان على الاحتكام إلى أبي بن كعب . وحكم لصالح العباس رضي الله عنه "اذهب فلا اعرض لك في دارك ، فقال العباس/ أما إذا قلت ذلك فإني قد تصدقت بها على المسلمين أوسع عليهم في مسجدهم " فخط له عمر داره المعروفة بالزوراء وبناها من بيت مال المسلمين.

وقد صاحب أعمال التوسعات السعودية القيام بصرف مبالغ كبيرة على نزع الملكيات للعقارات المحيطة بالحرم والتي قد تفوق تقديراتها لتكاليف العمارة.

جـ - تقنيات التصميم والبناء والتأثيث

- **التصميم وتقنيات البناء**

لما أتم عمر رضى الله عنه تحديد الدور المحيطة بالمسجد الحرام اللازمة لتوسعة المطاف وإحاطتها بالأسوار سواء كان ذلك بالتعويض أو بالهبة أو بالتصدق شرع في بناء جدار المسجد الحرام أما فيما يخص المسجد النبوي فقد حرص رضي الله عنه أن تكون جميع الدور إما بالشراء أو الهبة أو التصرف لأن الرسول ﷺ هو الذي اختط هذه الدور للصحابة رضوان الله عليهم. وحرص كما قدمنا على ألا يغير شيئا من هيئة المسجد الذي ألفها المسلمون فبنى أساسه بالحجارة كما فعل الرسول ﷺ إلا أنه زاد في الأساس حتى بلغ قامة ثم أتم بناءه باللبن وجعل ارتفاعه أحد عشر ذراعا أي ما يقارب من خمسة أمتار ونصف ، وجعل عمده جذوع النخل وسقفه بالجريد وجعل له سترة محيطة بسطحه بارتفاع ثلاثة أذرع ، وكانت زيادته رضى الله عنه في المسجد من جهاته الثلاث (الجنوب والشمال والغرب) كما تقدم ذكر ذلك ، ولم يزد من جهة الشرق شيئا.

وأحدث عمر رضى الله عنه في المسجد ثلاثة أبواب ليواجه بذلك كثرة الناس وإقبالهم على الدخول والخروج فأصبح بذلك للمسجد ستة أبواب : بابان عن يمين المتجه للقبلة وهما باب عاتكة الموجود في زمن الرسول ﷺ والمعروف بباب الرحمة والثاني باب أحدثه هو وهو المعروف بباب السلام وجعل له بابين عن يسار المتجه للقبلة وهما باب آل عثمان وهو الذي كان يدخل منه الرسول ﷺ والمعروف الآن بباب جبريل والثاني أحدثه هو ، وهو المعروف بباب النساء.

وجعل له بابين في مؤخره وهما : الباب الذي كان على عهد رسول الله ﷺ والثاني أحدثه هو رضى الله عنه.

روى مسلم في صحيحه عن محمود بن لبيد - رضى الله عنه - أن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - أراد بناء المسجد فكره الناس ذلك فأحبوا أن يدعه على هيئته فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من بنى مسجدا لله بنى الله له بيتا في الجنة.

وفي البخارى عن عبيد الله الخولاني أنه سمع عثمان بن عفان يقول عند قول الناس فيه حين بنى مسجد الرسول ﷺ إنكم أكثرتم وإني سمعت النبي ﷺ يقول : (من بنى مسجدا - قال بكير : حسبت أنه قال : يبتغى به وجه الله - بنى الله له مثله في الجنة).

وهذان النصان صريحان في أن المسلمين أنكروا على عثمان وكرهوا أن يبنى المسجد على هذا النمط الجديد ولا يجوز أن يكون الإنكار والكراهية لمجرد بناء المسجد ذلك لأنهم هم الذين شكوا إليه ضيق المسجد وطلبوا منه أن يوسعه ولأنهم أيضا هم الذين استحسنوا منه فكرة الهدم والبناء حين عرض عليهم الأمر ووافقوا عليه ، فما كان لهم بعد ذلك أن ينكروا البناء أو يكرهوا التجديد فالإنكار والكراهية إذن لأنهما كانا لما أحدثه من تغيير هيئة البناء

وبنائه على الشكل الذي ذكر في الأحاديث الصحيحة ولهذا قال البغوي بعدما ذكر الحديث الذي فيه أن عثمان بناه بالحجارة وجعل عمده الحجارة المنقوشة وسقفه بالساج قال : (ولعل الذي كره منه الصحابة هذا) .

ونقل ابن حجر عن ابن بطال – رحمهما الله – قوله : هذا يدل على أن السنة في بنيان المسجد القصد وترك الغلو في تحسينه فقد كان عمر مع كثرة الفتوح في أيامه وسعة المال عنده لم يغير المسجد عما كان عليه وإنما احتاج إلى تجديده لأن جريد النخل كان قد نخر في أيامه ثم كان عثمان والمال في زمانه أكثر فحسنه بما لا يقضى الزخرفة ومع ذلك فقد أنكر بعض الصحابة عليه. لكن عثمان رضي الله عنه تلقى المعارضة بصدر رحب ، وقلب سليم وأوضح للمعارضين وجهة نظره وبين أنه لم يفعل ذلك إلا طلبا للأجر ، ورجاء المثوبة والذي دفعه إلى هذا قول النبي ﷺ : (من بنى مسجدا لله بنى الله له مثله في الجنة).

فقد أراد – رضي الله عنه – أن يحسن في المسجد على قدر الدنيا ، ليحسن الله له بيته في الجنة على قدر الآخرة فهو إذن متأول وهو معذور فلا داعي للكلام والنقد ولا معنى للمعارضة قبل التأكد من الدوافع التي دعت إلى الفعل ولهذا لما أكثر المسلمون الكلام رد عليهم بقوله : إنكم أكثرتم وإني سمعت النبي ﷺ يقول من بنى مسجدا ....الحديث).

- **التأثيث والزخرفة**

من أهم الأمور التي تواجه من يتولى عمار بعد تمامها المساجد هي زخرفتها وفرشها وإضاءتها وتجهيزها وتكييفها والأصل فيها الإباحة. من المعلوم أن المسجد في عهد رسول الله ﷺ لم يكن مفروشا حتى وكف عليهم المطر ففرشوه بالحصباء وظل كذلك في خلافة أبي بكر رضى الله عنه وفي خلافة عمر رضى الله عنه فرشه بالحصير. ومن الثوابت في عمارة المسجد عدم استخدام ذوات الأرواح في الزخرفة.

- **إضاءة المسجد**

مر بنا أن المسجد في عهد رسول الله ﷺ كان يضاء بسعف النخل حتى قدم تميم الداري سنة تسع من الهجرة وكان معه قناديل وزيت وحبال فأمر أحد غلمانه فعلق القناديل وأوقدها فأضاء بها المسجد وسر بذلك رسول الله ﷺ ، وقال له "نورت مسجدنا نور الله عليه".

وقد توالت أساليب إنارة الحرمين عبر تاريخهما باستخدام أجسن ما كان متوفرا في كل عهد مثل القناديل والشمعدانات والفوانيس والأتاريك حتى وصول تقنية الكهرباء بالحديثة فتم انتشار استعمالها بشكل وأضفى عليها بهاء وثورا وزاد في زينتهما وسهل إقامة الشعائر إبان الليل وأطراف النهار.

- **تجمير المسجد**

تنظيف المساجد وتطهيرها من الأمور التي اهتم بها الإسلام وحث عليها ويكون ذلك بإخراج القمامة والتقاط الخرق والعيدان وتطييبها وتخليقها وتجميرها قال تعالى : ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين ﴾ [البقرة،آية١٢٥].

فتخليق المسجد وتجميره مأمور بهما منذ عهده ﷺ ولكن عمر رضي الله عنه هو أول من جعل حصة خاصة للمسجد من الطيب يجمر بها - أي يبخر بها.

وهكذا نرى أن عمر رضي الله عنه لما جيء له بسفط العود و لم يكن كافيا لتوزيعه على المسلمين جميعا أمر به فجعل في المسجد حتى ينتفع به جميع المسلمين ، حيث يتردد الجميع على المسجد فينالون من طيبه ، وهو بذلك كان أول من جعل للمسجد هذا الحظ من التجمير حتى روى السمهودي أن عمر رضي الله عنه أتى بمجمرة من فضة وأنه دفعها إلى أحد الصحابة وقال : أجمر بها في الجمعة وشهر رمضان وكان يجمر بها في الجمعة وكانت توضع بين يدي عمر بن الخطاب.

الفراغات المفتوحة

استحدث عمر رضي الله عنه البطيحاء إلى جوار المسجد كأول فراغ عام مفتوح حول المسجد. وأراد عمر بذلك أن يجنب المسجد اللغط ورفع الأصوات وإنشاد الشعر إلى غير ذلك مما رآه عمر يقلل من هيبة المسجد في نفوس الناس ويجرئهم على ارتياده في جميع أحوالهم ولو كانت لا تتلاءم ومنزلة المسجد.

ولقد كان رضي الله عنه حريصا على أن تظل هيبة المسجد قائمة في قلوب المسلمين ومن أجل هذا لما سمع رجلا يضحك أرسل إليه وقال من أنت ؟ فقال : أنا رجل من ثقيف فقال : أمن أهل البلد أنت ؟ فقال بل من أهل الطائف فتوعده فقال : لو كنت من أهل البلد لنكلت بك إن مسجدنا هذا لا ترفع فيه الأصوات.

وقد اعترض بعض المسلمين على عمر هذا الاستحداث وأثار نقاشا وجدلا شديدين، لأن هيئة المسجد قد اختلفت عليهم فلم يعودوا يرونه على ما كان عليه أيام رسول الله ﷺ وخليفته من بعده.

وقد أهتم من قام بأعمال توسعة الحرمين الشريفين بالساحات المحيطة بهما كعناصر عمرانية وذلك لما لهما من دور كبير في استيعاب الأعداد الكبيرة من المصلين أثناء فترة الحج وأيام الجمع والأعياد كما أنها تشكل امتداد آني للحرمين وقت الصلاة فقط أما في الحالات العادية فهي عبارة أماكن مفتوحة.

الأمن والسلامة [٢٤]

يعتبر اتخاذ المقصورة في المسجد النبوي الشريف من الحلول المبتكرة لأمور أمن وسلامة المسلمين فالمقصورة بناء مثل الغرفة تبنى في المحل الذي يصلى فيه الإمام بالناس أي مكان المحراب - و لم يكن ذلك معروفا في عهد رسول الله ﷺ ولا في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ثم أحدثت بعد ذلك واختلفت الروايات في أول من اتخذها.

وعن مالك بن أنس – رحمه الله – قال : لما استخلف عثمان بعد مقتل عمر بن الخطاب عمل عثمان مقصورة من لبن يصلي فيها بالناس خوفا من الذي أصاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكانت صغيرة.

يمكن القول بأن عثمان رضى الله عنه هو أول من بنى المقصورة باللبن ، ثم بناها بالحجارة المنقوشة معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه. بعد الاعتداء عليه .

الخلاصة

كما مر نجد أن المسلمين ابتداء برسول الله ﷺ وصحابته والتابعين إلى التوسعات السعودية حافظوا على الثوابت السابقة وعندما تعارضت المتغيرات مع مصلحة المسلمين في التوسعة لم يجدوا حرجا في إيجاد البدائل التي تخدم المسجد والمصلين.

ويتميز المسجد الحرام عن سائر مساجد الأرض بأنه ليس مكانا للصلاة فقط ولكن أيضا مكان مقدس لأداء بعض من أهم مناسك الحج والعمرة والتي تعتمد على الطواف حول الكعبة المشرفة والسعي بين الصفا والمروة وشرب ماء زمزم. والصلاة بالمسجد الحرام تكون على هيئة دوائر متتالية تشكلها حركة الطائفين حول الكعبة. فبذلك فإن الشكل الدائري للمصلين بالمسجد الحرام هو ما يميزه عن سائر مساجد الأرض.

في تصميم المساجد أو توسعتها لا ينبغي تحويل المتغيرات إلى ثوابت وهذا الخطأ وقع فيه كثير من المهتمين بتصميم المساجد حيث جعلوا من الطراز والأعمدة والأشكال والتقنيات ومواد البناء والمعالجات المناخية والبيئية المقتبسة من مناطق أخرى جعلوا من هذه المتغيرات أو من بعضها ثوابت مما ضيق وحجر مفهوم ممارسة المهنة ذات الطابع الإسلامي وكان الأجدر التركيز على الثوابت والآداب الإسلامية الخاصة بالمساجد والتمشي مع روح العصر حتى نحافظ على استمرارية القيم المنبعثة من العقيدة وترك المجال للإبداع في المستجدات التي لا تمس الثوابت أسوة بالسلف الذين تجمعوا لعمارة المحلية في كل بلد ذهبوا إليه واستخدموا مواد وتقنيات البناء المتوفرة في كل مكان وزمان تثبت في المساجد القبلة وكل ما لم يدخل ضمن الثوابت ويستجد في حاجة المسلمين.

أما الكلام عن الطرز المستخدمة في عمارة الحرمين الشريفين فكما هو معروف أن الطراز هو عبارة عن نموذج خاص يعبر عن مجموعة من الصفات تلتقي عندها سلسلة من الأشياء وهو الذي يميز المعماري عن غيره أو عصر معين بذاته والذي يطلق عليه الأسلوب وهذا يختلف من عصر لآخر ومنطقة وأخرى وفنان وآخر فمعماريو الحرمين لم يجمعوا ويتفقوا على طراز معين ومعاصر لكل مشروع من مشاريع التوسعة على مر العصور يفضل على غيره ولم تعمل دراسات تبين لنا وتشرح لنا الفروق في طرز الحرمين في ضوء المعطيات الجديدة ، وكل ما عندنا هو محصلة ما أنتجه السلف من المعماريين في تراث أعطت لكل مشروع من مشاريع التوسعة طرازه المميز.

الخاتمة

بالتوسعة يكون الحرمان (المكي والمدني) قد وصلا إلى درجة رفيعة من الإتقان مما يستطاع عمله بالمال والرجال، ومن حيث المساحة الداخلية والخارجية والسعة العامة والمرافق وغيرها فاقت هذه التوسعة جميع التوسعات. وبهذا المستوى الرائع في التصميم والتنفيذ يقف الحرمان الشريفان قمة شامخة في عالم المعمار الإسلامي ، ويشكلان أنموذجا معماريا يفتخر به كل مسلم على وجه البسيطة فالعمل استفاد كثيرا من معطيات تقنية المعمار الحديثة مع الاحتفاظ بالثوابت الشرعية كمعايير المعمار والإنشاء والهندسة والحاسبات الإسلامي المتجدد.

فالعمارة للحرمين الشريفين على مر العصور ما هي إلا انعكاس واضح لبعض آداب وتعاليم الشريعة الإسلامية التي تبلورت مع تجارب المسلمين في البناء وكونت عمارة إسلامية واضحة المعالم.

الحرمان الشريفان يتزودان من معين واحد (الحاج والمعتمر والزائر والراكع والساجد). فالحج والعمرة إلى بيت الله الحرام والزيارة لمسجد رسول الله ﷺ والسلام عليه وعلى صاحبيه رضى الله عنهما، وزيارة المآثر الإسلامية في المدينة المنورة التي ثبت أن الرسول ﷺ داوم على زيارتها.

وجد الباحث أن توسعات الحرمين الشريفين على مدى العصور تحدث نتيجة للزيادة المطردة لأعداد المسلمين الذين يؤمون هذين الحرمين إلا فيما كان لظروف غير طبيعية كحوادث الحريق الذي حدثت بالحرمين خلال القرن السابع والثامن والتاسع الهجري مما أستدعي عمارة غير مرتبطة بالزيادات في أعداد الحجاج والمعتمرين. هناك العديد من ولاة الأمر من جمع بين عملين متزامنين لتوسعة الحرمين الشريفين مثل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان والمهدى العباسي والملك عبد العزيز والملك سعود وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله.

إنما صرف على مشاريع الحرمين منذ تأسيسهما ويصرف على إدارتهما وصيانتهما ومقارنته بالمنفعة التي جلبتها على الأعداد الهائلة من المستخدمين عبر الزمان ونصيب كل فرد في هذا الإنفاق نجدة قليلا جدا بالمقارنة مع ما يصرفه الإنسان لمنزله ومأكله ومشربه ومركبة فالحمد لله من قيض المسلمين من يقوم ويرعى مثل هذه الأعمال. تشكلت العمارة للحرمين الشريفين على مر العصور لمثل هذين المعلمين كتفاعل حقيقي بين ولاة الأمر والمعماريين والمهندسين ومهرة البناء. فالنتيجة على مر العصور هو قمة أعمال صناع وأرباب حرف محليين أو قدموا من بلاد الإسلام أو غيرها المختلفة وأبرزوا مهارتهم بدافع من الإخلاص والمحبة للحرمين في الطاهر فأثمروا إبداعات ثرية في العديد من جوانب العمارة كتشكيل الفراغات والواجهات ، ومتانة البناء ، وتوفير احتياجات الحجاج والمعتمرين والزوار وهذا ما تعكسه بحق العناصر والتفاصيل المعمارية في مباني الحرمين الحالية (العثمانية والسعودية) ولابد من متانة في البناء وكفاءة وراحة في الاستخدام وجمال في المظهر حتى لو كلف الوقت والمال لأن مئات الملايين من المسلمين تستخدمها وصدق الشاعر عندما قال:

ألم تر أن الحبل بتكراره في الصخرة الصماء قد أثرا

فقد تم ولله الحمد استخدام الأفضل من بلاط الأرضيات على اختلاف مستوياتها والدرج والجدران لأنه بكثرة الاستخدام سيعمر كثيرا.

ورغم تفاوت التوسعات إلا أن كل منها حسب ظروف الحاجة وإمكانات العصر لكن اجتماع أكثر من مليون مسلم على قلب رجل واحد على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وأعمارهم وقدراتهم البدنية والمالية في مكان واحد تكتنفه جميع أسباب الراحة حيث الماء البارد من بئر زمزم الطاهرة التي شربها داء لكل سقم والهواء المكيف البارد والإضاءة المريحة للعين والصوت الجميل للمؤذن والأمام الخالي من الصدأ والسلالم المتحركة والثابتة والمعارج (المصاعد) التي تنقل الحاج والمعتمر والزائر إلى أي طابق من طوابق الحرمين الشريفين وكذلك الأمن على النفس والمال بما في ذلك رخص المعيشة لهي نعم تستحق الشكر والدعاء لمن يقوم بتوفيرها للجميع والحمد لله في الأولى والآخرة.

المراجع

[١] الطاشكندي، فرحات خورشيد. "العمارة الإسلامية: أغلوطة لغوية أم سفسطة عمارية". *مجتمع وعمران*، رجب ١٤٠٣هـ.

[٢] الطاشكندي، فرحات خورشيد. "التراث والمعاصرة". *ندوة الحفاظ على التراث العمراني الخليجي المميز*. الدوحة: قطر. ١ -٣ أكتوبر ٩٤.

[٣] الأزرقي ، محمد بن عبد الله بن احمد. *أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار*، مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة: ١٣٩٨هـ

[٤] ابن زبالة، محمد بن الحسن (ت : ١٩٩هـ). *أخبار المدينة* (مفقود) نقلها عنه السمهودي.

[٥] ابن سعد، محمد (ت : ٢٣٠). *الطبقات الكبرى*. بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر.

[٦] ابن شبة، عمر (ت : ٢٦٢). *تاريخ المدينة المنورة، المدينة*: (نشر السيد حبيب محمد احمد)، ١٤٠٢هـ.

[٧] الفاسي، تقي الدين، *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*. مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، ١٣٧٦هـ.

[٨] ابن النجار، محمد بن محمود (ت ٦٤٣هـ). *الدرة الثمينة في أخبار المدينة*، قابله واعتنى به حسين محمد علي شكري، دار المدينة المنورة للنشر والتوزيع ١٤١٧هـ، المدينة المنورة.

[٩] السمهودي (ت ٩١١هـ)، نور الدين على بن أحمد. *وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفي*. أربعة أجزاء، الطبعة الثانية، بيروت: ١٩٧١.

[١٠] الوكيل، محمد السيد. *المسجد النبوي عبر التاريخ*. جدة: دار البلاد للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ.

[١١] الحسيني ، الشريف احمد محمد صالح. *نبذة من تاريخ المسجد النبوي العمراني*، جدة: مطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر، ١٤٠٦ هـ .

[١٢] القسطلاني، أحمد بن محمد. *المواهب اللدنية*، بيروت: المطبعة الشرقية، ١٤٠٣هـ.

[١٣] مصطفى، صالح لمعي. *المدينة المنورة، تطورها العمراني وتراثها المعماري*. بيروت: دار النهضة، ١٩٨١م.

[١٤] عبد الغني، محمد إلياس. *تاريخ المسجد النبوي الشريف*. جدة: المطابع الإعلامية، ١٤١٦هـ

[١٥] الكردي، محمد طاهر. *التاريخ القويم لمكة وبيت الله القويم*، مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة, ١٣٨٥هـ

[١٦] الصاوي ، أمينة. *الكعبة المشرفة*، كتاب اليوم ، العدد ٢٨٢، القاهرة: مايو ١٩٨٨

[١٧] باسلامة، حسين عبد الله. *تاريخ عمارة المسجد الحرام*، جده : تهامة، ١٤٠٠هـ.

[١٨] العبد المحسن، إبراهيم بن عبيد. *تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان*، الرياض: مطابع مؤسسة النور للطباعة والتجليد، دون تاريخ.

[١٩] البرزنجي، جعفر. *رؤية الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين*. بيروت: دار الصعب، ١٣٠٣ هـ.

[٢٠] القشيري، مسلم بن الحجاج (ت : ٢٥١هـ). *الجامع الصحيح*، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٠هـ.

[٢١] البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح. رقم ١١١٦.

[٢٢] العمري، ابن فضل الله. *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*. ليدن: برايل، ١٩٦٥.

[٢٣] السهيلي، عبد الرحمن. *الروض الأنف في شرح السيرة النبوية* (ت : ٥٨١هـ). تحقيق عبد الرحمن الوكيل، القاهرة: دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٧هـ.

[٢٤] الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير (١٩٧١م). التراتيب الإدارية، بيروت: ص ص ٧٧- ٧٨.

[٢٥] العوايشة، حسين. *تسوية الصفوف وأثرها في حياة الأمة*. الطبعة الأولى. عمّان: دار عمار، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

[٢٦] الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر. *إعلام الساجد بأحكام المساجد*. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

[٢٧] الجراعي، تقي الدين أبو بكر بن زيد. *تحفة الراكع والساجد في أحكام المساجد*. الطبعة الأولى. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠١هـ.

[٢٨] الألباني، محمد ناصر الدين. *تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد*. الطبعة الرابعة. دمشق: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

[٢٩] السدحان، عبد العزيز بن محمد. *من مخالفات الطهارة والصلاة وبعض مخالفات المساجد*. الرياض: دار طيبة، ١٤١١هـ.

[٣٠] الطرهوني، محمد بن رزق. *جمع الفوائد اختصار إصلاح المساجد من البدع والعوائد* للقاسمي. الطبعة الأولى. الدمام: دار ابن القيم، ١٤٠٧هـ.

[٣١] الوشلي، عبد الله قاسم. *المسجد وأثره في تربية الأجيال*. الطبعة الأولى. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٨هـ -

١٩٨٨م.

[٣٢] وانلي، خير الدين. *المسجد في الإسلام*. الطبعة الثانية. الكويت: الدار السلفية، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

[٣٣] الهذلول، صالح بن علي. *المدينة العربية الإسلامية: اثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية*. الطبعة الأولى. ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

[٣٤] زغروت، محمد. *رؤية فكرية وتاريخية لرعاية الحرمين الشريفين وحمايتهما من الحركات المعادية*، الرياض: دار المعراج للنشر والتوزيع، ١٤١٢٠هـ.

Immutable and Mutable in the Architecture of the Two Holy Mosques: Lessons Gained from their Development Throughout History

Mohammed Eben Abdullah Eben Saleh

Department of Architecture and Building Sciences,
College of Architecture and Planning, King Saud University
Riyadh, Saudi Arabia

Abstract: The meaning of immutable religious rules are the rules that architects and planners must comply with during the process of planning, design, or restoration of any project related to the Two Holy Mosques. On the other hand, mutable rules are those that do not contradict with immutable religious rules which were set by Islam. In fact, the process of defining the immutable and mutable may help to understand the subject of continuity in heritage which has always been supported by theoreticians of planning and architecture. It is so important to understand immutable rules that spring out of the Islamic Law along with changes that are imposed on us by the physical features of the place (geographic and climatic) and by industry products of building materials, construction systems, and equipment, since this will serve the comfort of people who are performing Haj, Umra, or the Visit to Makkah or Al-Madinah. Progressive technology always helps the user of the architectural space to cope with natural factors. Successful interaction between the immutable and the mutable may clarify to us the shape and development of the architectural style typical of each period of history of the two Holy Mosques, the fact that leads us to be careful when judging architectural styles and the extraordinary technologies used in our time which we call "Modernism".